
روايات مصرية للجيب
56
ما وراء الطبيعة
أسطورة
ملك الذباب
Looloo www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

مقدّمة

هناك دائمًا الأمل فى أن نبقى أحياء حتى الصباح ..

إن الباب موصد ومفتاحه ليس معنا .. هذا صحيح ..

رائحة الكبريت تنتشر ، ومن يعرف كتب القرون الوسطى يعرف ما معنى رائحة الكبريت حين تأتى من دون كبريت .. أوافق على هذا ..

هذا الضوء الأخضر المريب من تحت الباب .. إنه مقلق .. هذا حق ..

صوت الحفيف .. أم هو الفحيح ؟ لايريح النفس كثيرًا .. أعترف بهذا ..

إن (ليليث) تتحرك بالخارج .. أنا أعرف هذا وأنتم تعرفونه .. وتعرفون من هى (ليليث) لو كان فى عروقكم دم لم تمتصه بعد ..

لكننا مازلنا أحياء .. مازلنا نتنفس ..

لا أرى ما يمنعنا من أن نرى ضوء يوم جديد ، فهذا الموقف ليس أسوأ ما مر بنا ..

كيف ينتهى هذا الموقف ؟ كيف نخرج من هذه الورطة ؟ لا أدرى طبعًا ..

تعالوا من حولى .. قربوا الرءوس .. أصغوا لى ..

اليوم أحكى لكم عن ملك الذباب ..

كلا .. لست بصدد سرقة أو اقتباس أو استيحاء رائعة (وليام جولدنج) التى نال عنها جائزة (نوبل) .. الرواية التى تحمل اسم (إله الذباب) ، والتى تحكى عن مجموعة من الصبية على جزيرة مهجورة ، يحاولون أن يبدءوا مجتمعًا ..

إن قصة اليوم لا علاقة لها بهذا الموضوع .. لكن لا توجد طريقة أخرى لوصف ملك ذباب إلا بأنه (ملك الذباب) ..

مرعبة ؟ ربما .. إنها تخيفنى شخصيًا وأكره أن

أتذكرها .. لكنى مضطر لذلك الآن .. فقط كى أمارس عملية انتقال الخبرات التى هى وقود التطور الأهم .. وربما هى مبرر وجود الشيوخ أصلاً ..

مرعبة ؟ حتى لو كانت مريعة فلن تتفوق على (ليليث) التى تجول فى الخارج ، محاولة أن تقتحم الغرفة علينا ..

مرعبة ؟ لو كانت مرعبة أكون قد قدمت لمن يهوون الرعب ما يريدون .. وإن لم تكن فعلى الأقل قد رفهت عنكم حتى تأتى ساعات النهار ..

هذه القصة - إذن - هى نوع من التسلية كى تنسوا ذلك الشىء الذى ينتظر على ناحية الباب الأخرى والذى قد يدخل فى أية لحظة ..

عندها يعلم الله وحده كيف سنكون ...

* * *

1 ـ بعد منتصف الليل ..

ـ « لا يوجد ما نفعله إلا أن ننتظر .. »

قلت له وأنا أرشف القهوة التى طلبها لى :

ـ « غريب أنت يا أخ (شريف) .. »

قال رافعًا حاجب التهكم الأيسر :

ـ « هل ستكرر نفس ما تقوله فى كل مرة ، عن أننى جدير بالدراسة ككائن غريب ؟ عن أننى لامع نظيف جدير بأن أوضع فى كتب القراءة القديمة ، التى تتحدث عن الطالب المثالى ؟ »

ـ « ليس هذا ما أعنيه الآن وإن لم أتنازل عنه .. وإنما عنيت أنك تقدم برنامجًا على الهواء ، يعتمد على مكالمات المستمعين الهاتفية ، وبرغم هذا أنت تقامر .. فعلاً تقامر .. ماذا لو بدأت الحلقة وانتهت

من دون أن يتصل أحد ؟ لقد مرت عشر دقائق من دون أن يرن جرس الهاتف .. »

قال (شريف) وهو ينظر فى ساعته بقلق ، وينظر إلى مهندس الصوت :

ـ « ماذا تريد ؟ هل تريد أن ألفق متكلمين مزيفين كما يفعل الجميع ؟ »

بالطبع لم تكن هذه المكالمة مسموعة ، لأن مهندس الصوت كان يقوم بإذاعة عدد لاينتهى من أغانى (عبد الحليم حافظ) القصيرة المرحة ليضيع الوقت .. وهذا طبعًا بعدما قال (شريف) المقدمة المملة المعهودة عن « حكاياتكم التى ستكون وقودًا لآلة الرعب كى تتحرك » ..

كانت هذه إحدى حلقات البرنامج الإذاعى (بعد منتصف الليل) الذى كان يذاع فى الواحدة من صباح يوم الجمعة أسبوعيًا .. فلابد إذن أننا كنا فى العام 1969 أو 1970 .. لا أذكر بالضبط .. المؤكد بالنسبة لى هو أننا كنا فى الشتاء .. ربما شهر فبراير كذلك ..

(بعد منتصف الليل) .. هذا البرنامج الأسبوعى الذى أعطانى قسطاً لابأس به من الشهرة - وليس المال - فى عصر كان المذياع فيه ذا أهمية بالغة ، وكان بالفعل يمثل بؤرة البيت ، والذى تقوم فكرته - البرنامج لا المذياع طبعاً - على تلقى مكالمات المستمعين على الهواء .. دائماً ما كان الرعب أو الميتافيزيقا موضوع تلك الحلقات ، وكنت أرد بما يفتح الله علىَّ به من ردود .. لكنى كنت فى أكثر الأوقات ألعب دور المشارك المندهش لا الناصح الحكيم ..

فيما بعد حدث مايحدث دائماً .. هناك أطفال أوغاد - وكل الأطفال كذلك على الأرجح - يظلون ساهرين إلى مابعد منتصف الليل ، وبرغم التحذير الواضح فى بداية الحلقات فإنهم كانوا يستمعون .. ويبدو أن البرنامج كان يثير رعبهم .. نعم .. إن تأثير الأصوات الخارجة من المذياع فى سكون الليل يفسح مجالاً هائلاً للخيال ، وربما لو كان البرنامج على شاشة التلفزيون لما أحدث هذا التأثير ..

هكذا قررت الرقابة إيقافه بعد عام .. لكن مازالت لدى حلقات كثيرة منه .. وبعضها ممتع بلاشك ..

قلت للمذيع (شريف السعدنى) وأنا أضع قدح القهوة على المنضدة :

- « لا أعنى تلفيق المكالمات .. بل ادخارها .. أن تدخر بعض المستمعين طيلة الأسبوع على أن تضمن اتصالهم بعد منتصف الليل .. »

فى تفاؤل ابتسم وقال :

- « لاتقلق .. أنت لاتمارس العمل الإعلامى ولاتعرف أن هذه المكالمات كالرزق .. لا أحد ينام من دون عشاء ، ولن يمر البرنامج من دون مكالمات .. ثم إننى أراهن على علم النفس .. إن المواطن العادى لايمكنه أن يقاوم سماع صوته أو آرائه خارجة من المذياع بينما يسمعها الملايين .. هذه غريزة من الغرائز التى تحرك التاريخ ، مثلها مثل غريزة البحث عن الطعام والجنس والنفوذ ..

هذا أقوى من التحمل البشرى .. ثق أن الجرس سيدق الآن .. »

نظرت له مليًا نظرة طويلة أحرجته .. وقلت :

ـ « متفائل كالعادة .. دائمًا متفائل .. وهذا يضاف إلى صفاتك العجيبة التى أجدها جديرة بالدراسة .. أنا على عكسك شديد التشاؤم ، وأرى أن هذا الشىء لن يدق أبدًا .. »

قال فى غيظ مهذب :

ـ « تفاؤلى غير عقلانى .. وتشاؤمك غير عقلانى كذلك .. »

ـ « أنا أؤمن بأن الحظ الحسن ليس ضمانًا .. لهذا أحتاط دائمًا .. إن بعض التخطيط لن يضر أحدًا .. »

هنا ـ كأنما ليثير غيظى ـ دق جرس الهاتف ...

★ ★ ★

يبدو أن الحظ يبتسم للذين يثقون به ثقة عمياء ..

لقد جاء الصوت عبر الهاتف .. وكان من الواضح أنه من زبائن البرنامج فعلاً .. وتبادل (شريف) ومهندس الصوت نظرة ، وعلى الفور توقف صوت (عبد الحليم حافظ) الرخيم ، وخرج من السماعات صوت متحشرج واهن يقول :

ـ « مساء الخير .. »

فهو رجل لايتمتع بالحس الجغرافى إذن ، لأننا (صباح الخير) الآن ..

اتخذ صوتى طابعًا (إعلاميًا) رسميًا وقلت :

ـ « صباح الخير ياسيدى .. هل يمكن أن نتعرفك ؟ »

ـ « أنا (مختار سلماوى) .. أربعون عامًا .. بلا عمل ولا أسرة حاليًا .. أسرتى من (الدلنجات) بالبحيرة لكنى أعيش فى القاهرة الآن .. »

قال (شريف) :

ـ « أنت لاتضيع وقتًا ياسيدى .. لقد لخصت كل شىء عنك .. »

- « لو رأيت ما رأيته لعرفت أن الوقت لايمكن أن يضيع .. إن حياتى لاتنتهى أبدًا .. والنصر الوحيد الذى أحرزه فى نهاية اليوم هو أنه انتهى .. »

قلت فى حكمة :

- « هذا كلام مرضى الاكتئاب جميعًا .. »

صمت الرجل ، ثم قال فى تؤدة :

- « ما علينا .. »

- « هل هناك مشكلة يا سيدى ؟ »

- « نعم .. الذباب ! »

لم أفهم ما يرمى إليه ، فعدت أكرر السؤال من جديد :

- « أعنى المشكلة التى تمر بها .. المفترض أن هناك مشكلة .. »

- « قلت لك إنها الذباب .. »

هنا بدأت أفهم .. هذا مهرج آخر ممن يكرهون أن يفوتوا فرصة جذب ذيل الكلب الصغير أو ركل القط النائم .. العبث غريزة مدمرة لها سلطانها ، وسل عن هذا أى واحد ممن لايطيقون أن يروا مقعد حافلة إلا ومزقوه بالموسى ، ولا يرون لافتة (الرجاء عدم التدخين) إلا وحذفوا (عدم) لتصير (الرجاء التدخين) ..

قلت له فى ضيق :

- « نحن شاكرون لك يا سيدى .. ونعتذر عن إضاعة وقتك ولكن ... »

هنا صار أداؤه عصبيًا بحق :

- « أقول لك إنه الذباب .. الذباب يحاصرنى فى كل مكان ولا أقدر على الخلاص منه .. »

بدت لى عصبيته حقيقية .. لو كان ممثلاً فهو عبقرى .. ولو كان مجنونًا فهو من الطراز الذى تعرفه الأفلام المصرية ، والذين يصفهم الدكتور (شديد) دومًا بعبارة : ما أبدعك !

هنا تدخل (شريف) ليثبت أنه ليس فقط نظيفًا وابن ناس، وإنما هو أيضًا لبق :

ـ « سنكون لك شاكرين يا أستاذ (مختار) لو تحدثت بالتفصيل . »

هنا بدأ الإيقاع يهدأ قليلاً .. وبدأت قصة الرجل تولد ...

* * *

قال الأستاذ (مختار) :

ـ « هناك دائمًا بداية لكل شىء .. لكن قصتى بلابداية ما .. فقط صحوت من النوم لأجد أننى صرت كذلك .. »

ـ « يمكننى أن أتكلم طويلاً عن المحاسب المحترم الذى عاش حياة هادئة بلا تقلبات ولا مشاكل .. حياة هادئة كالنهر .. يمكنك أن تتنبأ بدقة من أين بدأت .. وأية مسارات تتخذها .. وأين تنتهى .. طبعًا لا تستطيع معرفة متى تنتهى هذه .. »

ـ « كلية التجارة .. التخرج .. شركة خاصة محترمة .. زوجة صالحة من بنات الأسر .. طفلان جميلان .. بيت هادئ .. سيارة (نصر) صغيرة مستعملة لكنها تؤدى الغرض .. المصيف فى الإسكندرية أسبوعًا كل عام .. مدخرات بسيطة لكنها تجعلك مطمئنًا نوعًا إلى الغد .. حلم الحج قبل أن تموت .. بطيخة وجريدة كل يوم فى أغسطس .. نزهة على الكورنيش مع الترمس واللب فى ليالى الصيف .. تلفزيون صغير .. »

ـ « لقد نلت نصيبًا من كل متع الحياة .. نلت نصيبًا صغيرًا جدًا لكنى لم أحرم من شىء .. وعرفت أننى على الأرجح سأحاول الاستمرار برغم أن أسرتى لم تعرف بطول العمر .. أساعد الولدين فى الزواج .. أذهب للحج .. أعود لأجلس على المقهى ألعب الطاولة مع أصدقائى القدامى .. فى كل يوم يموت واحد .. فى النهاية أعود إلى الدار وأطلب كوب ماء ثم لا أشربه لأننى أكون قد مت بالسكتة القلبية .. جنازة .. دموع .. معاش .. صورة ذات

شريط أسود فى الصالة .. ثم ينسى الجميع كل شىء على .. »

- « هذا هو النهر الهادئ الذى تعرف فى كل لحظة أين سيكون فى اللحظة التالية .. »

هنا تدخلتِ كعادتى :

- « ألا تجد أن هذه الحياة قد تبدو جحيمًا للبعض ؟ إن عشرين عامًا أخرى من شراء البطيخ وأكل الترمس لهى فترة أطول من اللازم .. »

قال فى هدوء :

- « إن فكرتى عن السعادة هى السريان المنتظم الهادئ .. ربما أنا أغبى أو أذكى من الآخرين .. لكنى لست من الطراز الذى يشكو من حياة هادئة كتلك .. »

فى تأمل قلت :

- « حقًا .. أذكى أو أغبى .. إما أن تكون فى غاية الاكتفاء الذاتى والنضج الفلسفى، وإما أن تكون - معذرة على التعبير - بقرة راضية عن مرعاها ..

المهم أن هذا السريان الهادئ المنتظم تحول إلى حركة دوامية تطبق كل قوانين (برنولى) .. »

هنا ضغط (شريف) على ركبتى لأخرس قليلاً .. وأنا إلى حد ما أفهمه ..

وواصل الرجل الكلام :

- « نعم .. فى ذلك اليوم الأسود - منذ شهرين تقريبًا - صحوت من النوم لأجد أن هناك ذبابًا أكثر من اللازم فى الغرفة .. نهضت من الفراش، وفتحت الشرفة ورحت أذبه بالمهشة .. لكن عدده كان يتزايد باطراد ..

« جاءت زوجتى إلى الحجرة واندهشت لما رأته، لهذا أحضرت مقعد (التسريحة) لتصعد إليه وتمد يدها فوق خزانة الثياب لتحضر زجاجة (الفليت)، ثم ملأت البخاخة بالمبيد، وبحزم وصرامة راحت ترش تلك الحشرات المزعجة وهى تلوم الولدين اللذين يأكلان الحلوى ثم يلمسان كل شىء بأيديهما الملوثة اللزجة .. تساقط الكثير من الذباب وبدا لنا أننا انتصرنا ..

« لكن الذباب عاد يحتشد من حولى حين جلست ألتهم الإفطار ..

« ذباب على الطبق .. ذباب يحوم حول رأسى .. ذباب على الملعقة .. ذباب فوق طبق الفول .. وفى هذه المرة نهضت مذعورًا وطلبت من زوجتى أن تعيد استخدام المبيد ، لكنها صاحت فى إباء إنها لن تفعل هذا على مائدة الطعام أبدًا ..

« هكذا لم أتناول الإفطار وغادرت الدار ..

« كنت شارد الذهن فلم أعلق أهمية على ما يحدث .. وركبت سيارتى العتيقة إلى العمل ..

« غريب هذا ! إن هذه السيارة تعج بالذباب ! كنا فى ديسمبر والطقس أقرب إلى البرودة ، وبالتالى لم يكن هناك ذباب إلا فيما ندر .. لكنى وجدت أن هناك عددًا لابأس به من الذباب اللحوح السمج حول وجهى وأنا أقود ..

« لم يكن ذبابًا عاديًا يخضع للذب بسهولة .. بعضه

كان من النوع الذى يعتقد أن وجهى مكسو بالصمغ .. وكان له طنين يثير الجنون ...

« فتحت النافذة ورحت أحاول أن أبعده حتى كاد هذا يكلف أحد المارة حياته ، وفى النهاية وصلت إلى عملى ..

« يجب أن أقول إننى حتى تلك اللحظة كنت أفترض أن هناك هجومًا غير مبرر للذباب على الجميع .. من الصعب وأنت محاط بالذباب أن تفترض أنه لايهاجم الآخرين .. لو أن سحابة من الغيوم تمطر حولك أنت وحدك فلن تعرف إلا بصعوبة أنه لاتوجد أمطار فى موضع آخر ..

« دخلت العمل فكانت الملحوظات ذاتها . ورششت المبيدات ووجه اللوم إلى العمال الكسولين .. لكننى بعد قليل بدأت أفهم أننى الوحيد .. فعلاً الوحيد الذى يحيط به الذباب .. »

هنا صمت (مختار) .. صمت برهة طالت ، فسألته وأنا لن أندهش لو كان قد مات :

- « أستاذ (مختار) .. ماذا حدث بعد ذلك ؟ »

- « نعم ؟ »

كأنه يتكلم من بئر عميقة ..

- « قلت لك : ماذا حدث بعد ذلك ؟ »

قال بطريقة تقريرية :

- « انتهت القصة ! »

- « ماذا تقول ؟ »

- « أقول إن القصة انتهت عند هذا الحد .. »

- « أى أنها كانت حادث يوم واحد ؟ لقد انتهى الكابوس بلاتفسير .. »

- « بل هو مستمر بلاتفسير .. إن سحابة من الذباب تحيط بى الآن !! »

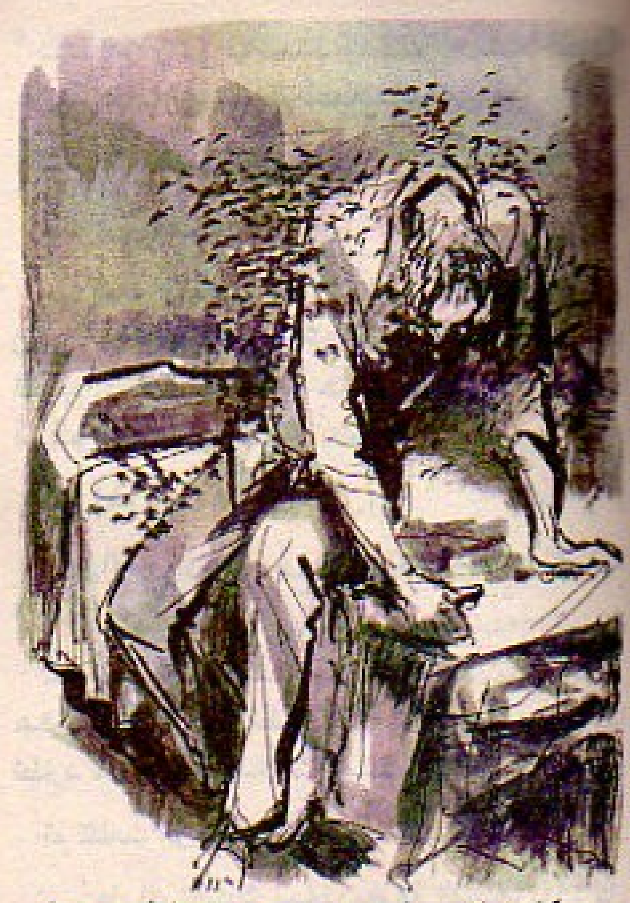
* * *

2ـ ملك الذباب ..

قال (مختار) :

ـ « استمرت المشكلة تنغص عالمـــى .. لم تعد زوجتى تتحمل ، ففارقت البيت مع الطفلين .. طبعًا لم تطلب الطلاق لأن مشكلة كهذه ليست من الطـراز الذى يمكن الكلام عنه فى المحاكم ..

« طبعًا فى العمل قيل لى إن هذه شركة محترمـة ، وليس من المستحب أن يعمل بها موظف يحيط بـه الذبـاب .. وهكذا طردونـى وضميرهم يؤنبهم لأننـى كنت بالفعل موظفًا بارعًا مخلصًا .. لـو أننـى أصبت بالجذام أو الدرن فى أثناء العمل ، لاعتبرت حالتى عجزًا أو شيئًا من هذا القبيل ، ولكانت لى معاملة ماليـة معقولـة .. لكن هل يوجد (قومسيون) طبى يعترف بالذباب كسبب للعجز ؟



« وهكذا يا دكتور (رفعت) وجدت نفسي خلال أسبوعين وقد فقدت كل شيء ! .. »

« وهكذا يا دكتور (رفعت) وجدت نفسي خلال أسبوعين وقد فقدت كل شيء .. العمل والأسرة وراحة البال .. فلم يبق لي إلا البيت الخاوي كي أخفي فيه سري .. والحقيقة إن فكرة الانتحار خطرت لي مرارًا ، لكني كما قلت لك رجل متدين عاش حياة محترمة .. فهل أنهي هذه الحياة المحترمة بشرايين مقطوعة ؟ من الغريب أن أسرتي امتازت بأجداد يموتون في سن مبكرة لا تتجاوز الأربعين .. لكنني الاستثناء الوحيد هنا كما يبدو ، وهذا ليس مما يسعد نفسي »

هنا جاءت اللحظة التي كنت أخشاها منذ بدء المحادثة :

- « ما هو رأيك إذن يا دكتور (رفعت) ؟ »

ابتلعت ريقي .. لو أنهم أحضروا هنا كل السحرة وخبراء الميتافيزيقا والقوى النفسية وكل الأطباء النفسيين وعلماء الحشرات ، فلا أحسبهم سيقولون رأيًا أكثر عمقًا من رأيي الآن :

— « لارأى لى يا أستاذ (مختار) . هذه القصة غريبة حقا .. بل إننى لم أسمع مثلها من قبل .. »

— « أنا لا أتصل كى تخبرنى بأن حالتى غريبة .. »

قلت فى عصبية :

— « يجب أن تكون عادلاً .. امنحنى فرصة لتكوين رأى .. أما أن تطالبنى بالحكم الفورى فلست (سليمان) الحكيم .. لاحظ أنك تعرف حالتك جيدًا وتألفها . أما أنا فلم أسمع عنها إلا منذ عشر دقائق .. »

قال (شريف) فى رزانة :

— « الأمر يوحى بأن هناك لعنة معينة تطارد الرجل .. »

— « يبدو الأمر كذلك .. لكنه كما قال يحيا كنهر هادئ ، واللعنات لاتطارد الأنهار الهادئة .. إنها تطارد الدوامات والشلالات ومساقط المياه .. »

ثم تكلمت موجهًا الكلام إلى ضيف البرنامج :

— « هل لك احتكاك سابق بعوالم الميتافيزيقا ؟ هل

فتحت مقبرة فرعونية أو آشورية أو تخص أباطرة المتشو ؟ »

ضحك الرجل بعصبية .. ولم يرد وكان معنى عدم الرد بليغًا ..

عدت أسأله :

— « هل تعفن أحد أطرافك ؟ هل أنت مصاب بغنغرينا الغاز أو أى جرح ملوث ؟ »

فى ضيق صدر قال :

— « لا .. »

— « هل يمكنك الاتصال بى ؟ لابد من لقاء .. إن مشكلتك أعقد من أن تُحلّ على الهواء .. »

— « ممكن .. »

— « هل تعرف طريقة الاتصال بى ؟ »

— « أعتقد .. »

ثم وضع السماعة ..

كان تأثير هذا شبيهًا بالصفعة قليلاً لأننى تعودت على أننا نحن ـ بسلطة الإعلام ـ من يضع السماعة فى وجوه الآخرين .. من الوقاحة أن تصفع من اعتاد أن يصفع ..

قال (شريف) وهو لم يلحظ ارتباكى :

ـ « حالة غامضة يا دكتور .. وأعتقد أننا لم نتحرك كثيرًا بعد سماع القصة كاملة .. »

قلت فى ضيق :

ـ « لا أعرف .. إننا نفترض دومًا أن من يتصل بنا صادق ، وأن المازحين العابثين الراغبين فى التسلية على خلق الله لاوجود لهم .. وهو افتراض (يوتوبى) إلى حد ما .. بل وأجسر على وصفه بالسذاجة .. »

ـ « لامصلحة له فى اختلاق قصة .. »

ـ « لاتنس متعة العبث .. العبث للعبث .. كما أن (أوسكار وايلد) تحدث عن الفن للفن ، وتحدث (ليلوش) عن الحياة للحياة ..»

ـ « ربما لكننا ـ كما قلت أنت ـ نفترض حسن النية فى مستمعينا .. يبدو أن الوقت داهمنا .. ليس لدينا سادتى إلا أن نشكر ... إلخ .. »

* * *

أكون كاذبًا لو قلت إن القصة احتلت أى جزء من عقلى فى الأيام التالية ..

لقد عدت لممارسة حياتى الرتيبة ، وفى الأسبوع التالى عدت إلى الأستوديو لأقدم حلقة أخرى من البرنامج ، وكانت قصة الطفلة (نهال) التى كانت تعتقد أن أباها قد مسه تمثال (ست) .. أعتقد أنكم تذكرون تلك الحلقة .. كانت قصة غريبة لكن ـ على الأقل ـ كان لها تفسيرها ..

كنت أستعد فى ذلك الوقت للسفر إلى الولايات المتحدة ثم أوروبا ، لهذا أخبرت (شريف) أن الحلقات ستتوقف بعض الوقت .. لو لم يكن البرنامج على الهواء لأمكننا أن نسجل حلقتين أو ثلاثًا .. الهدف

من سفرى مؤتمران علميان ، لكن النتيجة الفرعية كانت تلك المغامرة الأوروبية التى حكيتها لكم عن اجتماع الساحرات فى كهفهن لأكل الأطفال .. ماذا ؟ لم أحكها بعد ؟ مستحيل .. لابد أننى حكيتها باسم (أسطورة كهف السحرة) أو (أسطورة الغابة) أو شىء من هذا القبيل .. غريب هذا ! إننى إذن أشيخ حقًا ...

لكن .. ربما أحكيها فى مرة قادمة .. لكن ليس اليوم ..

كانت حياتى تمضى بانتظام لكنى لم أكف عن تذكر ذلك التعبير الذى قاله (مختار) عن تلك الحياة الهادئة كالنهر .. يمكنك أن تتنبأ بدقة من أين بدأت .. وأية مسارات تتخذها .. وأين تنتهى .. وطبعًا لاتستطيع معرفة متى تنتهى ..

إن حياتى نهر هادئ بالفعل .. لكن مشكلتها هى تلك الشلالات التى تعترض طريقها من حين لآخر .. ولا أعرف حقًا إن كنت أتمنى أن أعيش فى نهر أم

فى شلال .. الأول ممل أكثر من اللازم والآخر مثير أكثر من اللازم .. ربما لو أننى منحت حياة شخص آخر لاخترت حياتى هذه .. على كل حال أنا اعتدت جو التعاويذ القديمة والأشباح ومصاصى الدماء الذين يعودون للحياة ، ولم أعد أتصور أية حياة أخرى .. ويبدو أن هذه الأشياء بدورها لم تعد تتصور أى أحمق آخر سواى ..

أعتقد أن السفر هو ما أتوق إليه الآن ..

كنت جالسًا فى مكتبى - بعد أسبوعين - أراجع بعض الأوراق العلمية حين شعرت بوجود .. وجود له أبعاد هائلة من الطول والعرض والارتفاع .. رفعت رأسى فوجدت أن الواقف على الباب امرأة .. امرأة ضخمة كالكابوس تقف على الباب وتنتظر فى أدب حتى أرفع نحوها عينين متسائلتين ..

انتزعت عوينات القراءة ، وارتديت العوينات الأخرى وهى لحسن الحظ تصغر الأشياء قليلاً ، وبالتالى صار بإمكانى استيعاب هذا الكيان العملاق .. وأعدت

النظر فوجدت أن رأيى الأول كان مصيبًا ، وإن كان لها وجه طفولى مريح .. فهى إذن لن تلقينى على الأرض وتركل طحالى حتى يتمزق .. ومن الصعب فى هذه الأيام أن تقابل من لا يفعل بك ذلك ..

ـ « دكتور (رفعت) ؟ (رفعت إسماعيل) ؟ »

فلو كانت أسمج قليلاً لقلت لها ردًا سخيفًا على غرار : إن لم أكن أنا هو فالأمر خطير .. إلخ .

ـ « أنا هو .. »

ـ « أنا (منيرة عبد اللطيف) .. مدام (سلماوى) لو أردت .. »

كان الاسمان لا يعنيان لى أى شىء .. لكننى ابتسمت كأنما تعطفت على أخيرًا بزيارة طال انتظارها .. ودعوتها للجلوس ..

جلست فسمعت الأريكة العتيقة تئن احتجاجًا .. ثم قالت وهى تلهث من فرط ما أحرقت من (الأدينوسين ثلاثى الفوسفات) :

ـ « نحن لم ننفصل .. أعنى أن هذا لم يتم رسميًا .. فقط أنا فى بيت أهلى إلى أن يستجد شىء .. »

ومدت يدها إلى كوب الماء على مكتبى فرشفت رشفة لا بأس بها .. ثم غمغمت :

ـ « لا تؤاخذنى .. »

كأنما هذه المرأة تفترض أننى أذكر كل شىء عن كل إنسان مشى على البسيطة .. لا أعتقد أن كمبيوتر المخابرات المركزية الأمريكية يمكنه أن يزعم هذه القدرة ، لذا قلت لها فى رزانة :

ـ « الحق هو ما فكرت فيه .. الانفصال هو آخر حل يلجأ إليه الزوجان .. إن الهدم أسهل من البناء .. »

ـ « هذا ما فكرت فيه .. »

ـ « وهو ؟ ألم يأت إلى بيت أهلك قط طالبًا الصلح ؟ »

ـ « نعم .. لم يأت .. إن مشكلته تزداد تعقيدًا وهو لا يجد الراحة لحظة واحدة .. »

- « هل كرامته ملتهبة إلى هذا الحد ؟ »

- « بل عيناه هما الملتهبتان .. أنت تعرف أن الرمد لايفارق عينيه بسبب كل هذا الذباب ! »

هنا انتهى فتيل صبرى فصحت فى عصبية :

- « ذباب ؟ عم تتكلمين بالضبط ؟ »

نظرت لى فى غباء .. ثم انفجرت فى ضحكة مرهقة تعسة :

- « وأنت عم تتكلم ؟ ظننتك فهمت أننى أتحدث عن (مختار سلماوى) .. الرجل الذى اتصل بك فى أثناء إذاعة برنامجك الإذاعى .. لقد نسيت اسمه .. »

هنا عاد إلى خيط الذكريات بوضوح تام .. هذه زوجة الرجل الذى يطارده الذباب .. ومن الواضح أنها تحاول معاونته بشكل ما ..

قلت لها وأنا أجفف عرقى :

- « هل لى أن أعرف سبب تشريفك لى ؟ هل أرسلك زوجك ؟ »

- « قلت لك إنه لا اتصال بيننا .. »

- « وكيف وصلت إلى هنا ؟ »

- « من يسأل لايضل الطريق .. المهم أننى جئت أبحث عنك لأننى أعرف أن زوجى لن يتصل بك ثانيا .. إنه قانط يعرف أنه لا أحد يستطيع مساعدته .. ولعل اتصاله ببرنامجك كان محاولة أخيرة (من حلاوة الروح) كما يقولون .. لكنى أتابع منذ زمن برنامجك الذى نسيت اسمه .. أعرف أنك بارع أو على الأقل أنت أفضل البلهاء أو النصابين الموجودين .. »

ثم مالت تسألنى فى فضول :

- « هل سمعت من قبل عن رجل يطارده الذباب أينما ذهب ؟ »

قلت - مكلمًا نفسى فى الواقع - وأنا أخط بالقلم على الورق :

- « هناك فى الأساطير الإغريقية مدينة كاملة ابتليت بالذباب ، هى مدينة (أرجوس) ، وهذا لأنها

تسترت على مصرع (أجاممنون) بطل حرب طروادة على يد زوجته (كلتمنسترا) وحبيبها (إيجسن).. فى النهاية يقوم ابنها (أورست) بقتلها وحبيبها انتقامًا لأبيه.. لقد عولجت هذه القصة بالتفصيل فى ثلاثية (أورستيا) لـ (أسخيلوس)..

« فيما بعد جاء الكاتب الوجودى (سارتر) ليعالج القصة بمفهوم مختلف فى مسرحية (الذباب).. طبعًا ليجعل (إيجسن) يرمز للنازيين و (كلتمنسترا) ترمز لحكومة (فيشى) الفرنسية العميلة التى تعاونت معهم.. أما (أورست) فهو المثقف الوجودى الذى يفعل ما يؤمن به متحديًا (زيوس) نفسه.. وفى النهاية يغادر المدينة رمزًا إلى أنه يصلح للثورة والتحرير لكنه لا يصلح للحكم.. »

كانت تصغى لى فى انبهار ممصمصة بشفتيها كأنما تسمع شاعرًا يترنم على القيثار، وقالت:

ـ « ياسلاااااااام! أحسنت! الزوجة الخائنة لابد من أن تجلد بالسياط.. »

نظرت لها ثم تذكرت من هى.. ليس الوقت مناسبًا للكلام عن الميثولوجيا الإغريقية والمفكر الوجودى وحكومة (فيشى).. هى لم تر فى القصة كلها سوى أن الزوجة الخائنة يجب أن تجلد بالسياط، كأنما تشاهد فيلمًا عربيًا..

هذه زوجة مصرية عادية جدًا.. أم بطبعها منذ كانت فى المهد.. سيدة بيت.. ومن الواضح أنها تجيد صنع المحشو والكفتة.. هاتان اليدان المكتنزتان تشيان بذلك.. يدان خلقتا كى تضغطا على كرات اللحم الغارقة فى السمن قبل وضعها فى الصينية.. لابد بالطبع من أن تدس فى فمها بعض السمن البلدى بالمغرفة قبل استعماله على سبيل قياس الجودة والتأكد من أن « السمنة مرملة ».. هذه سيدة لن تظفر منها برأى عميق أو منطقى لكنها جديرة بكل احترام كما نحترم أمهاتنا..

أخذت شهيقًا عميقًا وقلت لها:

ـ « طبعًا هذه أساطير ولا يمكن أن نقيس عليها..

بينما ما حدث لزوجك واقع لاشك فيه . ورأيي الخاص الذى أصر عليه هو أننى لن أقول حرفًا دون لقائه .. »

وعدت أسألها :

ـ « كيف يبدو الأمر ؟ »

قالت فى بساطة :

ـ « كما قال لك .. حيثما وجد هناك ذباب كثير جدًا .. مهما جربت المبيدات فلاجدوى .. سرعان ماتحتشد أسراب أخرى .. هذا يجعل الحياة لاتطاق .. »

ـ « وهل تنبعث منه روائح منفرة أو شيء من هذا القبيل ؟ هل يعانى من مصدر للتقيح ؟ »

تكور أنفها اشمئزازًا كأنما قلت شيئًا غليظًا وقالت :

ـ « البتة .. لكن لايمكنك أن تحتفظ بصحتك مع كل هذا الذباب .. بالطبع التهبت عيناه واضطربت معدته .. ولو بقيت معه لأصابنا ما أصابه .. أنا لست

قضية يادكتور (رفعت) .. أنا أحب بيتى وزوجى ، ولكن مايحدث هنالك هو شيء بلا تفسير .. والأهم أنه لايطاق .. »

ـ « فهمت .. أى أن المرض جاء نتيجة وليس سببًا .. وبالطبع أخذت رأى عدد لابأس به من الدجالين .. »

ارتسم على وجهها تعبير يقول بوضوح : (ماتعدش !) .. وراحت تلوح بكفها كأنما تطلب بعض الهواء :

ـ « يوه .. يوه ! عدد لايحصى منهم .. طبعًا كانوا يتحدثون عن عمل (سفلى) .. إلخ .. لكن ماتوصلت إليه هو أن هؤلاء القوم لايعرفون شيئًا .. لايعرفون شيئًا على الإطلاق .. »

ثم وضعت يدها السميكة على المكتب وقالت :

ـ « لن يأتى إليك أبدًا .. يجب أن تذهب إليه .. »

نظرت لها فى حيرة وابتلعت ريقى :

- « هل هناك سبب لكل هذه الحماسة ؟ »

- « أنت تنقذ أسرة من الانهيار .. وتنقذه من الجنون .. هو لن ينتحر لكنه سيفعل إذا جن .. من يدرى ؟ لعل الله جاعل الخلاص على يديك .. لاتبدو قادرًا على ذلك ، لكن الله قادر على كل شىء »

ساد الصمت وهلة .. سأبتلع رأيها فىّ الذى كونته من خبرة طويلة مع المحشو والكفتة والسمن البلدى .. دعك من أنها لم تبتعد عن الحقيقة كثيرًا ..

رحت أرمقها وأنا أدق بإصبعى على المنضدة ، ثم قلت لها :

- « حسن .. أريد العنوان .. »

ابتسمت فى توحش وقالت :

- « المشكلة الأخرى هى أنه لن يلقاك أبدًا بكامل وعيه .. أعتقد أنك ستحاول إقناعه عدة مرات ، فإن فشلت فعليك أن تتسلل إلى الداخل ! »

* * *

3ـ المقابلة..

يجب أن أكون واضحًا..

قد يحلو لى بعد قليل من السرد، وقد يحلو للبعض من (صائدى الأبطال) أن يعتبر أنى فعلت مافعلت انطلاقًا من شهامة قل أن نجدها هذه الأيام.. فى الحقيقة لاأحب أن أطلق على الأمور أسماء أخرى.. إن الناس قد تعتبر الشخص الممل إنسانًا (يفضل الصمت حين لايوجد مايقال)، وتعتبر الشخص الوقح رجلاً (لايصمت عن الحق).. والعاشق يتخلى عن فتاته دامعًا لأنه ملها، بينما هى ترتجف تأثرًا بالقلب المرهف الذى يمنحها حريتها مع من هو أفضل منه..

لن أزعم شيئًا من هذا.. لقد كان الفضول هو مايحركنى.. الفضول لتجربة جديدة، وأنا كما قلت لكم أجمع الخبرات كما يجمع غيرى علب الثقاب أو

سدادات الزجاجات .. هذا الفضول يمكن بسهولة أن يقنع غير المدققين بأنه شهامة لاحد لها .

قالت لى الزوجة وهى تخرج المفتاح من حقيبتها :

- « لم يعد يغادر الدار أبدًا .. لذا ستجده فى أى وقت .. »

- « سوف يملأ الدنيا صراخًا ويطلب الشرطة .. سأتحول إلى (هجام) كترقية أخيرة فى حياتى .. »

- « أولاً هو لن يطلب الشرطة أبدًا .. ثانيًا هو يعرف وجهك ، ولسوف تنقضى فترة عدم الفهم والمفاجأة سريعًا ، ثم يبدأ فى الكلام .. »

- « ومن قال إنه لا يوصد الباب بالمزلاج ؟ »

- « أنا قلت .. ليست هذه من عاداته .. »

على كل حال أخذت منها المفتاح وأنا أنوى ألا أستعمله أبدًا .. من أدرانى أن هذا ليس مقلبًا لتوريطى فى تهمة سرقة ؟ ليس لى أعداء بشريون كثيرون ، لكن هذا وارد .. بعد أعوام رأيت هذا

السيناريو حرفيًا فى إحدى حلقات (الكاميرا العفوية) (CANDID CAMERA) الأمريكية ، ولكن أفظع ما حدث للمتسلل هو أنه فوجئ بمن يقول له : ابتسم .. أنت فى الكاميرا العفوية ..

هنا لن يكون الأمر كذلك ..

قلت لها وأنا أدس المفتاح فى جيبى :

- « لكن .. سأزوره وأحاول أن أفعل شيئًا .. »

ابتسمت فى انتصار ثم بدأت فى إحراق (الأدينوسين ثلاثى الفوسفات) كى تنهض ..

قلت لها :

- « هل تعرفين رقم هاتفى ؟ »

- « نعم .. وأعرف أين أجدك فلا تقلق .. »

ثم ناولتنى قصاصة صغيرة من الورق لابد أنها من طرف جريدة ، وجدت عليها عنوان بيت أهلها ورقم الهاتف .. طبعًا كانت هناك وريقة أخرى عليها عنوان (مختار) ورقم هاتفه ..

البيت كان فى القاهرة ، فى حى شعبى مزدحم .. تحته مقهى يتبادل رواده السباب والبصاق وقرع أحجار الطاولة بطريقة توحى بالانتصار .. وكان هناك متجر لشطائر الفول والطعمية ، وأرض خالية فى مواجهته اتخذها سمكرى سيارات مكانًا يمارس فيه هواية الدق .. لابد أن صاحبنا كان أصم إذن حين تحدث عن (بيت هادئ) .. لقد جعلتنى كلماته أتخيل فيلا هادئة فى (جاردن سيتى) أو (الزمالك) ..

على أن عينى وقعتا فى الأرض الفضاء على سيارة (نصر) لاتخص السمكرى .. إنها سيارة (مختار) على الأرجح ..

فى رهبة اتجهت إلى المدخل .. لم يكن هناك بواب .. والدرج كان نظيفًا تفوح منه رائحة مطهر قوى ..

أصعد مرهقًا ولايفوتنى أن ألاحظ أن البيت خال تمامًا بلا سكان .. الزوجة قالت لى شيئًا عن هذا ، وإن صاحب البيت لايؤجر باقى الشقق ، وكانت هذه هى العادة فى ذلك الزمن ..

على باب الشقة فى الطابق الثالث وقفت ألهث وأتحسس عضلات صدرى .. لقد صارت الذبحة الصدرية شيئًا طبيعيًا فى عالمى إلى حد أننى لا أفهم كيف يمارس الناس حياتهم دون آلام فى الصدر ..

ثمة شىء على الأرض .. شىء ليس محبب الرائحة ..

انحنيت متوقعًا الأسوأ فلم أجده .. هذه بعض الأكياس تحوى خبزًا وشطائر .. خبز صار كتلة من العفن وشطائر ليست أفضل حالاً .. ثمة ثلاث جرائد يومية واضح من حالتها أن أحدًا لم يمسها ..

طاق طاق !

لأنه لا جرس هناك .. ولا استجابة كذلك ..

طاق طاق !

بعنف أكثر ...

- « أستاذ (مختار) !! »

لا أتلقى ردًا .. عندها أوشك على التراجع .. لكن

عقلى لايتنازل بهذه السهولة : رجل وحيد لايرد + جرائد لم يقرأها أحد + طعام لم يمس غالبًا كان هناك من يجلبه ويضعه على الباب = ؟؟؟؟

لايحتاج الأمر إلا إلى رائحة عفن ، ومجموعة من المخبرين ـ وكل المخبرين اسمهم (بطويسى) ـ تهشم الباب بأكتافها ، ثم خبر فى صفحة الحوادث ..

فكرت فى الأمر مليًا ، ثم وجدت أن نظرة واحدة لن تضر أحدًا .. الزوجة قالت إنه لن يرد علىّ .. فماذا لو كان هذا صحيحًا ؟

بحثت فى جيبى عن المفتاح ودسسته فى الثقب .. كليك ! انفتح على الفور كأنما لم يدره الرجل من الداخل على الإطلاق ..

أخيرًا رأيت الصالة .. هذا بيت عادى جدًا ليس موحيًا بالفقر ولا الثراء .. يمكن أن تراه فى كل مكان فى مصر وربما كان بيتك إذا لم تكن مليونيرًا أو شحاذًا ..

عفن ؟ بالطبع لا .. لاتوجد رائحة إلا تلك المعتادة

فى مكان مغلق لايفتح أبدًا .. فقط أدخل وأحاذر الارتطام بالمقاعد وأنا أواصل النداء :

ـ «أستاذ (مختار) !! »

حتمًا سيظهر الآن .. سيخرج من مكان ما خلفى لينقض علىّ ، عندها لن يتحمل قلبى الصدمة .. الأعلى الخاطر فتلفتت إلى الوراء ، وكان هذا سيئًا لأنى بدأت أقلق بحق .. إن الأركان التى لايبلغها النور أكثر من اللازم هنا ..

كانت هناك غرفة .. وكنت أعرف أنه فى الغرفة .. هذه أشياء لايمكن تفسيرها ..

خطوت مترددًا إلى هناك ووقفت على الباب أنظر إلى الداخل ..

هنا كان المشهد لايصدق ..

* * *

الذباب على الباب .. الذباب على الجدران ..

يمكنك بصعوبة بالغة أن تعرف اللون الأصلى لهذا الجدار ..

الذباب على الأرض .. الذباب فى الهواء ..

هذه حجرة نوم عادية جدًا من حجرات نومنا .. حجرة من التى توضع فيها حقائب السفر على خزانة الثياب ، مع الصندوق الورقى المقوى الذى اشتروا فيه جهاز التلفزيون .. لابد أن خزانة الثياب تحوى كسوة الصيف وقد تم ترصيعها بأقراص (النافتالين) المضادة للعثة ..

لكن الأرض كانت مغطاة بعلب المبيدات الحشرية الفارغة على الأرجح ..

على الكومود بقايا وجبة التهم الذباب نصفها .. وهناك كومة من الكتب .. وثمة شرفة أغلق بابها بالشيش والزجاج معًا ولسبب واضح طبعًا ..

الفراش مغطى بالذباب ، لكنك تستطيع أن ترى الجسد الراقد فوقه والذى تغطى بالذباب تقريبًا .. رجل

قد التف بالملاءات وأوشك على تغطية وجهه ذاته لولا أنه ترك بصيصًا للعينين ..

وكان يتنفس ..

كنت أقترب وأنا أحرك يدى ذات اليمين واليسار محاولاً إبعاد تلك الحشرات اللحوح عنى ، وفى كل لحظة كنت أرتجف .. هذه التجربة - بحق - من طراز فريد علىّ تمامًا .. لن أكف عن الدهشة بعد كل ما رأيت كأنما الحياة تتحدانى فى كل لحظة : تحسب أنك خبرت كل شىء ؟ حسن .. سترى يا أحمق !

سمعته يهمس من تحت الأغطية :

- « من ؟ من هنا ؟ انصرف فلا مال لدى .. أنت تضيع وقتك .. »

وهو ما كان واضحًا من دون تفسيرات غبية .. لو كنت لصًا لبادرت بالفرار لدى رؤية هذا المشهد ، لكنى لست بهذا القدر من الذكاء طبعًا ..

قلت بصوت مرتجف قليلاً :

- « أنا .. أنا دكتور (رفعت إسماعيل) .. »

- « آه .. أرجو أن تسامحنى .. إن النظافة هنا ليست مما يناسبك .. لاحظ أنك لم تأخذ موعدًا من السكرتيرة .. »

بينى وبينك كان رد فعله غير متوقع .. وبالتالى ليس مما يريحنى .. إنه لم يبد الكثير من الدهشة ..

تناولت ملاءة ورحت أطرد بها تلك الحشرات .. إن الأمر غريب، لكنها بالتأكيد ليست جرادًا .. ليست بكثافة الجراد الذى يجعل الفلاحين لايرون الشمس .. فقط يوحى الأمر بأن هناك كومة من القمامة هنا ..

قلت للرجل وأنا أتجه إلى الشرفة لأعالج مزلاجها :

- « اسمع .. لا أعرف فكرتك عن الترفيه، لكن لايمكنك أن تبقى فى هذا المكان .. »

- « أنت لاتفهم شيئًا .. هذه الحشرات تأتى حيث أكون .. لقد جربت كل شىء .. تغيير المكان لن يجدى شيئًا .. »

انفتحت الشرفة وتسرب النور إلى الداخل .. كانت تطل على زقاق خال لكنه نظيف .. أما ما أثار رعبى فهو أن الذباب لم يخرج .. كان يأتى من الخارج ..

صاح كالمجنون :

- « أغلق الزجاج يا أحمق ! أنت فقط تزيد من أعدادها هنا !! »

صحت كمجنون آخر :

- « كف عن هذا أنت وانزع هذه الأغطية .. لابد من أن أفحصك جيدًا .. »

وبصعوبة كافحت حتى حررت رأسه من الغطاء ثم بدأ يهدأ قليلاً فحررت باقى جسده .. كان رجلاً فى الأربعين من العمر كما قال، نحيلاً هزيلاً يذكرك بمرضى السرطان فى مراحله الأخيرة .. وأدركت أنه لم يحلق لحيته منذ أسبوع على الأقل، وفى عينيه نظرات مجنون .. لا ألومه على هذا كثيرًا ..

كانت عيناى تفتشان فى جسده، وسط أسراب



أما ما أثار رعبي فهو أن الذباب لم يخرج .. كان يأتي من الخارج ..

الذباب هذه، عن موضع جرح متعفن .. غنغرينا .. شيء بسبب هذا كله .. كنت أعرف أنني لن أجد شيئًا لأن رائحة الرجل عادية جدًا ..

قال وهو مستسلم في شيء من التهكم :

- « لا تتعب نفسك .. (كان غيرك أشطر) .. ما من طبيب لم يبحث عما تبحث عنه الآن .. »

- « أكون شاكرًا لو خرست قليلاً .. »

كانت عيناه ملتهبتين تمامًا كما قالت زوجته، وواضح أن الذباب لم يرحم ملتحمتي عينيه .. هذا رجل يحتاج إلى المستشفى لفترة لابأس بها .. أعرف أن هناك آنسات سريعات الاشمئزاز ها هنا، لذا لن أتحدث عن مرض (التدويد)، وهو ما يحدث لشخص يهاجمه الذباب بهذه الحرية ..

قلت له وأنا مستمر في الفحص :

- « لماذا لم تأخذ الجرائد ولا الطعام من على الباب ؟ »

- « لم أعد أستطيع القراءة .. أما عن الطعام .. فكيف آكل الآن ؟ ولماذا آكل ؟ لم يدخل جوفى منذ ثلاثة أيام إلا الماء .. »

قلت له فى حزم وأنا أعيد تغطيته :

- « الهاتف .. أين الهاتف ؟ »

- « ولماذا (الهاتف أين الهاتف) ؟ »

قلت فى صبر :

- « سأطلب سيارة إسعاف .. لن أتركك هكذا .. لابد من تغذيتك والعناية بهذه الـ ... »

- **« لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !! »**

انطلق فى الصراخ مرددًا هذه الكلمات فى رعب وانفلات تامين ، جعلانى أشعر كأنما فجرت بركان (إتنا) .. وفشلت تمامًا فى جعله يصمت ..

« لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !! »

أصابنى الرعب فغادرت الغرفة مسرعًا ، فإذا بى أسمعه يرتطم بالأرض .. لابد أنه حاول أن يلحق بى بينما هو لم يحرر قدميه من الملاءة جيدًا .. وهو ما يحدث لى كل يوم وأنا أحاول إخراس المنبه الأحمق ..

ها هو ذا الهاتف فى الصالة على (البوفيه) .. المكان المعتاد للأسر المتوسطة .. طبعًا هو موضوع فى أقبح سلة من الخوص المجدول ، لأن (فاتن حمامة) تفعل شيئًا كهذا فى أفلامها ...

« لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !! »

أسمعه يعوى من داخل الغرفة ، ومن الواضح أنه لن يجد الوقت الكافى ليلحق بى ..

ـ « ألو .. الإسعاف ؟ لدينا رجل فى حال خطيرة فى ... »

هنا سمعت الصرخة ...

ألقيت بالسماعة وهرعت إلى الحجرة ..

كانت خالية إلا من حشود الذباب الحائرة التى لم تحدد وجهتها بعد .. كأنما هى فقدت أباها ..

وباب الشرفة مفتوح ..

رسالة بلغة مفهومة لا تحتاج إلى مترجم ..

لقد جن الرجل تمامًا ...

* * *

ـ « هو لن ينتحر لكنه سيفعل إذا جن .. من يدرى ؟ »

* * *

٤ ـ تخلص منها ..

قال لى ضابط الشرطة ونحن نقف وسط حشود الفضوليين :

ـ « صارت عادة لك يا دكتور (رفعت) أن ينتحر الأشخاص الذين تزورهم لحل مشاكلهم ! »

كانت عربة الإسعاف تغلق بابها الكئيب ، حين قلت :

ـ « ربما كنت أقترح حلولاً جذرية أكثر من اللازم ! لكن ـ يعلم الله ـ أننى كنت دائمًا حسن النية فى كل مرة .. ولربما كان وجهى يبعث الاكتئاب فى نفوسهم .. من يدرى ؟ »

ضحك الرجل وأشعل لفافة تبغ ، ثم نظر إلى المتزاحمين شذرًا وقال :

ـ « على كل حال القصة هنا واضحة تمامًا .. الكل

يجمع على أن الرجل صار انعزاليًا لايخرج أبدًا ، وأن زوجته هجرته ، وشركته تخلصت منه .. لو كنت طبيبًا نفسيًا لقلت إن هذا أعراض الفصام .. »

ـ « لكنك لحسن الحظ لست كذلك .. »

« إن الخيال يفسر كل شىء .. لكنى سأكون شاكرًا لو جئت معنا لنأخذ أقوالك بشكل رسمى .. »

هززت كتفى فى ضيق .. المزيد من السينات والجيمات ..

لابأس .. لكنى متأكد من أننى لن أذكر شيئين .. أولاً لن أتكلم عن المفتاح لأن هذا يعقد الأمور .. ثانيًا لن أتكلم عن الذباب لأنه لم تعد ذبابة واحدة فى شقة الرجل .. ولا حول جثته .. إن الموت قد حل مشكلته بشكل جذرى ..

لكن لا .. لابد من الكلام عن المفتاح لو سألونى .. وإلا فإن الزوجة ـ وهى من طراز لايحفظ سرًا ـ

ستقول كل شىء . وعندها سيجد رجال الشرطة ثغرة لابأس بها فى كلامى .. ثغرة تسمح بدخول فيل ..

أمامى يوم عصيب بالتأكيد ..

* * *

جالسة مسربلة باللون الأسود فى دار أهلها ، وعيناها منتفختان كضرع بقرة حلوب ، كان من الواضح أنها لم تكف عن البكاء منذ عرفت الخبر ..

أخرجت المفتاح ووضعته أمامها ، ثم ساد صمت طويل .. بعد قليل همست :

ـ « أنا آسف .. لم أستطع مساعدته .. يعلم الله أننى حاولت .. »

ـ « تأخرنا أكثر من اللازم .. هذه هى المشكلة .. »

ومدت يدها التى خلقت لطهى الكفتة تمسك بالمفتاح .. وراحت تردد تلك العبارة فى صبر ..

ـ « هل سألوك عنه ؟ »

- « لا .. قلت إننى دققت الباب .. ففتح لى الفقيد .. لم أكن راغبًا فى تعقيد الأمور بالنسبة لك ولى .. »

جوارها كان أخبث وغدين يمكن أن تراهما فى الكوابيس .. ربما تراهما فى تلك الأفلام التى تدور حول حثالة القراصنة فى البحار .. هذان ـ طبعًا ـ كانا ولديها الصغيرين .. لايمكن أن يحمل هذه الوجوه المرعبة المليئة بالشر والشهوانية والجشع إلا الأطفال .. أما الرجل الأصلع الذى يفوقها بدانة فهو أبوها ، والرجل الآخر ذو الشارب الرفيع هو أخوها الذى يعمل فى شىء ما .. من الواضح أنه مهم لأن اعتداده بنفسه يفوق الحد ..

قالت الزوجة وهى تقترب منى بقدح القهوة :

- « ربما لو كنا أسرعنا قليلاً .. ولكن .. الأعمار بيد الله .. ماكنا لنغير شيئًا .. »

ولكن لهجتها كانت تقول بوضوح : لو أنك أسرعت قليلاً يا أحمق لكنت أنقذت الرجل ، ولكان حيًا

عزق بدلاً من أن أرى وجهك القبيح .. ياليتك فى القبر الآن بدلاً منه ..

وهو ما أغاظنى بصراحة .. لست مطالبًا بالموت بدلاً من كل شىء كى يرضى أهله عنى ..

تدخل الأخ المهم رفيع الشارب الذى هو أخوها قائلاً :

- « بعد هذه النهاية المأساوية يا دكتور (رفعت) .. مازلنا راغبين فى معرفة وجهة نظرك .. ماسر هذه الحالة الغريبة ؟ »

قلت فى مرارة :

- « لو كنت أعرف لما كنا هنا .. لاسوابق فى الطب ولا الميتافيزيقا ـ على قدر علمى ـ تحكى عن حالة مشابهة .. هناك أشخاص يجذبون الفئران أو الكلاب .. لكنى لم أسمع عن رجل يجذب الذباب .. »

- « وبم توصى ؟ »

- « لو كنت أعرف لأوصيت .. لكن القضية فى

رأيى انتهت تمامًا .. هذا لغز ظهر فجأة وتوارى فجأة .. ولا أعتقد أننا سنجد له تفسيرًا أبدًا .. هذا بالطبع لو كان الفقيد قد حكى كل شىء .. ربما هناك تجربة لايريد أن يحكى عنها .. »

قالت المرأة فى غيظ غبى :

ـ « أية تجربة ؟ زوجى رجل نظيف بلا تجارب .. لم يكن ينقصه شىء .. »

كنت أعرف أنها ستقول الشىء ذاته .. بالنسبة لها لابد من أن تكون التجارب قذرة ، وإلا فلماذا هى تجارب إذن ؟!!

انتهيت من القهوة التى كانت متقنة الصنع ، لكن ظروف الجلسة جعلتها أسوأ ما شربت فى حياتى ، ونهضت شاكرًا معزيًا معتذرًا متعجلاً مرتبكًا ...

ـ « هل يمكن الاتصال بك فى أى وقت ؟ »

ـ « الحقيقة أننى مسافر إلى الولايات المتحدة فى نهاية هذا الأسبوع .. سأبقى هنالك عشرة أيام .. »

لقد تركت فى نفوسهم انطباعًا لا بأس به بانعدام الكفاءة ، بينما هم تركوا فى نفسى انطباعًا بالحمق .. ولأن الانطباعات الأولى تدوم ......

* * *

عندما يأتى المساء هذه الأيام لا تتنثر نجوم الليل لسبب ما ..

كنت قد بدأت فى إعداد العشاء .. لم أكن مفتوح الشهية إلى هذا الحد ، لكنى كنت أعرف أنه لاشىء كالطعام يمكنه أن يتكدس فوق الذكريات القاسية فيداريها ..

ماذا آكل الليلة ؟ لدى بعض السجق فى الثلاجة ولدى بعض البيض .. هل تقترح وجبة معينة ؟ أحسنت ! إن من يفكر فى طبق من السجق بالبيض لهو شخص عبقرى ..

كنت فى المطبخ وقد بدأت رائحة القلى الشهية تتصاعد ، حين دق ذلك الجهاز الكريه الذى يضعونه فى البيوت ليدق ..

هرعت إلى الخارج لأرد ، وبيد ملوثة بالدهون التقطت السماعة بأطراف أصابعى محاولاً ألا أمسكها أكثر من اللازم :

ـ « هذا أنا .. »

جاء صوت أنثوى لم أتعرفه جيدًا يقول :

ـ « مساء الخير يادكتور .. ماذا تفعله الآن ؟ »

للحظة كدت أرد ثم فطنت إلى أن هذه معاكسة وقحة على الأرجح ، فقلت فى حزم :

ـ « من المتكلم ؟ »

ـ « أنا (منيرة عبد اللطيف) يادكتور .. ألم تتعرف صوتى بعد ؟ كنت أحسبك أذكى من هذا .. »

وأكاد أقسم إن صوتها لم يخل من شقاوة أو دلال .. من العسير أن أتصور أن هذه السيدة التى توفى زوجها وكانت تبكى عليه ظهرًا ، تتصل الآن لتتسلى علىّ أو معى .. بالإضافة إلى أن سحرى الرجولى لم يبلغ هذا المقدار بعد .. إما أنها جنت أو هناك سر مريع ..

قلت وأنا أحاول ألا أكون فظًا :

ـ « سيدتى . هل من شىء عاجل هنا ؟ »

قالت فى هدوء وقد استعادت بعض جديتها :

ـ « لا أستطيع أن أتركك .. فأنت لم تؤذنى فى شىء .. لهذا أسدى لك نصيحتى القلبية .. حاول أن تتخلص من الميدالية التى احتفظت بها .. المهم أن تجد أحمق يأخذها دون أن يرتاب فى شىء ! »

كانت كلماتها مليئة بالأخبار .. كل مقطع يحتاج إلى سؤال منفرد .. وقد دار رأسى للحظة وأنا أحاول أن أستوعب ماسكبته على رأسى البائس من أخبار سيئة .

سألتها فى إلحاح :

ـ « أية ميدالية ؟ »

ـ « التى أخذتها والتى كان المفتاح معلقًا بها .. »

طبعًا لم يكن هذا صحيحًا .. لقد أرجعت المفتاح كما هو .. ولست من هواة جمع الميداليات ، ولو كنت كذلك فأنا ـ حتمًا ـ لست من هواة سرقتها ..

- « لم آخذها ياسيدتي .. أعتقد أنك أضعتها بشكل ما .. لو سألت الجالسين لقالوا إني وضعت المفتاح معلقًا من الميدالية أمامك .. »

قالت في صبر وبلهجة من لاينوى أن يغير وجهة نظره :

- « على كل حال ، هي بلا قيمة بالنسبة لي ، لكن تذكر .. أنها مصدر الذباب الذي يطاردك ! »

- « لايوجد ذباب يطاردني .. إنني واهن البصر ولكن ليس إلى هذا الحد .. »

- « سيأتي ياسيدي .. لاتقلق !! »

- « لكن الميدالية كانت معك ولم تجلب لك خطرًا ما .. »

قالت في نفاد صبر باعتبارها لم تر أحدًا بهذا الغباء :

- « لأنني حين أخذتها من (مختار) كنت أعرف خطرها .. المرحوم (مختار) لم يعرف .. لم يعرف

إلا بعد فوات الأوان وبعد أن صار التخلص منها بلاجدوى .. لقد حاولت أن أساعده بأن أعطيك إياها لكن هذا لم يحدث فارقًا .. الآن صار عليك أن تعطيها لشخص لايشك في شيء ! »

كانت أسئلتي تتلاحق إلى حد أنها تهشم بعضها البعض .. عقلي دجاجة تبيض بسرعة جنونية فلايقدر أحد على الحصول على بيضة سليمة واحدة .. لهذا لم أجد إلا أن أقول :

- « أشكرك على هذه الرغبة الملحة في إيذائي .. ربما كنت جاهلًا أو غبيًا ، لكني لا أذكر أن أحدًا حاول قتلي لهذا السبب .. كما أنني كنت صادقًا في محاولتي المساعدة .. »

وابتلعت ريقي ، وأضفت :

- « مادامت هذه لحظة الحقيقة إذن فاعلمي أن زوجك مجنون .. وأنت لاتقلين عنه جنونًا فيما أظن .. أحسنت بك الظن فحسبتك مجرد بلهاء خاوية العقل ، والآن أجد أن زوجك أجاد الاختيار حقًا .. »

تهدج صوتها انفعالاً وقالت :

- « كنت أدافع عن أسرتى ، وأعرف أنك لن تفهم هذا أبدًا .. كان الوضع جنونيًا وبدا لى كل شىء مبررًا .. لابد أن أبعد هذه الأفعى عن زوجى لتلدغ شخصًا آخر .. وقلت لنفسى إنك ربما تستطيع أن تنجو بنفسك بينما سواك لايستطيع .. »

ثم صمتت قليلاً وقالت :

- « ثم إنى لم أؤذك .. هأنذا أقدم لك السر والحل .. أعط هذه الميدالية لشخص آخر لايعرف القصة .. افعل ذلك حالاً لمصلحتك الخاصة .. خذها نصيحة من أخت تريد لك الخير .. »

- « ولكن هذه الأخت ... »

ررررررررررر !

* * *

الآن يمكن القول إن وجبة السجق والبيض صارت تاريخًا .. لو وجدنا المزاج الرائق لاستكمال إعدادها

فلن نجد المعدة التى تقبل هضمها .. إن القطط التى يتم إطعامها على صوت نباح كلب تصاب بقرحة المعدة خلال أسبوع .. هذه تجربة معروفة ..

يمكننا أن نقوم بتقدير الموقف على ضوء ما سمعته :

1 - لو كان كلام المرأة دقيقًا فهناك ميدالية تبدأ حالة (جاذبية الذباب) هذه ..

2 - الزوج حصل على الميدالية دون أن يعرف بخطرها .. وهذا بالضبط هو المطلوب لجعلها تعمل ..

3 - من أعطاه إياها ؟ الزوجة ؟ لا .. على الأرجح أعطاه إياها ملك ذباب آخر ..

4 - ولربما هذا الملك الآخر هو الذى أنذر الزوجة كى يخلى مسئوليته الأدبية بعدما أنقذ حياته .

5 - يبدو أن الزوجة قررت إنقاذ زوجها عن طريق إعطاء الميدالية لأبله آخر .. ولهذا كان اقتراح أن أدخل البيت وأفتح الباب بنفسى ..

6 - وكنت أنا هذا الأبله ..

7 – الآن تطالبنى بالبحث عمن أعطيه الميدالية من جديد ..

تصرفها أنانى .. لكنها ما كانت لتجد من يقبل أخذ الميدالية طواعية ..

لكن السؤال الأهم هنا هو : هل الميدالية معى حقا ؟

نهضت إلى الخزانة فأخرجت كل سراويلى وستراتى .. كل ما له جيب يمكن أن توضع فيه هذه الميدالية . وبحثت بعناية .. بالطبع لاوجود لها .. فتشت كل المخابئ السرية فى دارى التى أضع فيها الأشياء كى لاتضيع ، ثم أنسى تماما بعدها أين وضعت ..وجدت عشرين خيطا احتفظت به كى (أجده عندما أحتاج إليه) وبالطبع كان لايظهر أبدا عندما أحتاج إليه .. وجدت إيصالات كهرباء وهاتف .. وجدت صورة لفتاة بلهاء لم أرها فى حياتى كتبت على ظهرها : إلى حبى الأوحد (رف رف) .. وجدت كل شىء ممكن ما عدا تلك الميدالية ..

ما الذى يدعو المرأة للاعتقاد بأننى أخذتها ؟

الجواب (الفرويدى) بسيط جداً : لأنها أرادت ذلك .. (الهى) لديها أرادت ذلك .. بينما منعتها (الأنا العليا) التى هى الضمير .. وهكذا كان الحل الوحيد لعقد صلح بين (الهى) و (الأنا العليا) هو أن تضيع الميدالية وتنسى مكانها ، ثم تحسبها عندى .. هكذا حققت رغبتها فى الإيذاء ورغبتها فى عدم الإيذاء معاً ..

الآن أجبت عن السؤال الأول : هل الميدالية معى؟ لاليست معى ..

السؤال الثانى هو : ماذا يدعو المرأة إلى الاعتقاد بأن الميدالية تجلب الذباب ؟ هل هذا صحيح ؟

يجب أن أستجوبها بدقة .. يجب ...

لقد بدأت هذه القصة تثير اهتمامى بحق ...

* * *

5- ري دي موسكاس ..

(هذا الجزء ليس من مذكرات د. رفعت لكنه استنتجه فيما بعد)

من جديد تدوى الطلقات ..

المشكلة فى هذه الخرائب انك لاتعرف أبدًا من أين يأتى الرصاص والموت .. فقط تنحنى وتمرغ رأسك فى التراب إلى أن تصمت الضوضاء .. لحسن الحظ أن هناك الكثير من هذه الخرائب هنا .. كل جدار يصلح للاختفاء وراءه ، وكل جدار هو حصن فى حد ذاته .

من الذى يطلق الرصاص ؟ لاتعرف .. عامة يتم تقسيم الفريقين إلى (أخيار) و (أشرار) .. وكما يقولون فى الأفلام : نحن الأشخاص الطيبون .. هذا يلخص كل شىء ...

الذى يطلق الرصاص هذه المرة هم الأشرار .. لماذا يطلقون ؟ لأنهم يعتبروننا نحن الأشرار .. وهو سوء فهم ، لكن لايمكن التغلب عليه لأن الرصاص هو التحية هنا ..

طبعًا لاداعى لأن أقول إن الرجلين كانا يجهلان كل شىء تمامًا عن هذه الفوارق الفلسفية .. كانا يتصرفان بعفوية وبالغريزة لا أكثر .. محاولة النجاة بالحياة .. محاولة البحث عن الطعام ..

هما لايعرفان كيف ولماذا جاءا هنا .. ولا يعرفان هدف هذا كله .. ولا يملكان أدنى أمل فى الغد .. كل ما يعرفانه هو تلك المحاولة البطولية من أجل الحفاظ على حياتيهما .. وهى محاولة شبه مستحيلة طبعًا ..

كانا فلاحين بسيطين .. الأول هو (شعبان التلاوى) .. شاب فى التاسعة عشرة من عمره من المنوفية .. ومن الواضح أنه قوى الجسد أو كان كذلك قبل أن يفتك الجوع بتكوينه العضلى ، ويبدو أن الفئران الصحراوية ليست مغذية جدًا ..

الآخر هو (عيد أبو فراج) من (الدلنجات) .. وصحته سيئة حقًا ، لأنه كان يعانى منذ فترة من لعنة الفلاح المصرى التى تطارده منذ عهد الفراعنة .. البلهارسيا التى جعلت طحاله يتضخم وبطنه يتضخم ، وهو ما كان جسده قادرًا على مقاومته فى البداية ، إلى حد أن الطبيب لم ير ما يمنعه من الاشتراك فى الحملة .. لكنه ما إن جاء إلى هذا البلد الكريه ، وجرب الجوع وأمراضًا غامضة شتى ، حتى فقد جسده السيطرة وأعلنت البلهارسيا أنها الرئيس هنا ..

كان (عيد) متزوجًا .. وكان لديه طفلان لا يعرف شيئًا عنهما منذ عامين .. لكنه كان يعرف شيئًا واحدًا على وجه اليقين : أنهما قد صارا يتيمين بالفعل .. ما بقى هو بعض الإضافات التى لن تغير شيئًا ولن تحدث تأثيرًا يذكر ..

واعتصر بندقيته فى مرارة ..

كانت فى حزامه بعض طلقات كما أن (السونكى)

كان بحالة طيبة .. لكنه لم يكن ينوى القتال أكثر .. كان متعبًا ولا يريد إلا أن يترك ليموت ..

أما (شعبان) فكانت طلقاته قد نفدت منذ زمن ، لكنه كان يحتفظ بالبندقية لاستعمالها كرمح ، كما أن منظرها كان يثير ذعر الفلاحين ..

كانت الشمس تتوسط السماء ، والذباب يطن فى كل موضع من هذه الخرائب ..

هذا هرم .. هرم عتيق تغطى الرمال أكثره ، وهما لم يكونا يعرفان الهرم فى مصر لأن أحدهما لم يغادر قريته قط ، ولم يكونا يعرفان القراءة .. لهذا بدا لهما المشهد غريبًا .. لكن نماذج العمران فى كل مكان من حولهما كانت تقول إن حضارة غريبة قامت هنا منذ زمن .. (مساخيط) .. لابد أن المكان يعج بهم ..

وقال (عيد) لصاحبه وهو ينظر حوله :

ـ « الناحية الأخرى من هذا .. يمكننا أن نجلس هناك .. ربما نجد بعض الظل كذلك .. »

نظر له (شعبان) بوجه كالح منهك .. حاول أن يتكلم فلم يستطع لأن لسانه كان قد جف تمامًا .. وهكذا مشى الرجلان عبر الرمال الحارقة بأقدام لم تعد فيها أحذية .. لقد سرقوا الأحذية منهما منذ أسبوع ، ولو حاولا استردادها لمزقهما الفلاحون ..

* * *

هنا نتوقف كى نضع بعض النقاط على الحروف ..

نحن فى المكسيك .. فى العام 1867 .. لابد أنكم خمنتم هذا حين رأيتم شكل الهرم وشكل الخرائب القديمة .. الأهرام التى تبدو منحدرة من ناحية بينما هناك درجات سلم من الناحية الأخرى .. نعم .. هذه هى المكسيك ونحن فى قلب حضارة المايا التى سادت البلاد من العام 900م حتى القرن السادس عشر حين بدأ الأسبان يهلون حاملين الكثير من المرح لسكان هذه البلاد الأصليين ...

وكما نعرف لم يعد المايا فى يومنا هذا إلا مجرد فلاحين بسطاء لم يتخلوا عن كثير من عاداتهم ..

المنطقة التى نحن فيها تدعى شبه جزيرة (يوكاتين) وهى من المواضع التى ترك فيها المايا آثارهم بقوة .. ومن هذه الأماكن (بالينك) و (أوكسمال) و (تيكال) ..

ولكى نفهم تفاصيل ما يحدث أمامنا ، لابد من أن نستعين بشىء من التاريخ ..

التاريخ المكسيكى معقد جدًا ، وبالطبع لا يمكن أن نقضى الوقت فى دراسته .. كل رقعة فى الأرض لها كتب تاريخ وأبطال ومعاهدات ، بحيث يصير من المستحيل أن تلم بهذا كله .. إن ما يلزمنا من التاريخ المكسيكى هو بالضبط ما نريده لفهم ما يحدث هنا ..

على كل حال يمكن تلخيص التاريخ المكسيكى كله على أنه انقلابات فثورات ، فانقلابات على الثورات .. ثم ثورات تطيح بالانقلابات .. مع صراع حدودى مزمن مع الولايات المتحدة تنجح فيه الولايات المتحدة - كالعادة - فى انتزاع قطعة من شمال المكسيك فى كل مرة .. وهكذا ولدت (أريزونا)

و (تكساس) و (كولورادو) و (نيفادا) و (يوتاه). بينما تحول جنوب المكسيك إلى شماله بمعجزة ما !

فى تلك الأعوام برز ثائر مكسيكى مهم اسمه (بابلو خواريز) .. تذكر الاسم .. فهو من الأسماء التى قد تقابلها من حين لآخر فى قراءاتك .. وقد تولى الحكم لفترة إلى أن دخلت الجيوش الفرنسية التى كان يحكمها (نابليون الثالث) (مكسيكو سيتى) عام 1862 .. ففر الرجل وأتباعه وقامت الحكومة التى تولت بتنصيب (ماكسميليان) امبراطورًا للمكسيك ..

ما دخل هذا بقصتنا ؟ يا أخى اصبر قليلاً .. كيف أكمل قصتى وأكلمك فى الوقت ذاته ؟

ظل الرجل يحكم مع زوجته قوية الشخصية (كارلوتا) لمدة عام، ثم قررت فرنسا أن تخرج بقواتها من البلاد .. هكذا وجد (ماكسميليان) نفسه فى ورطة .. كيف يظل محتفظًا بحكمه وهو الآن صار فى وضع الحكومة العميلة بالنسبة للثوار ؟

كان عليه أن يجد جنودًا بأى شكل ومن أى مكان ..

هنا يتبرّع (سعيد) خديوى مصر بعرض خدماته، على أساس أن الملوك يجب أن يتكاتفوا فى كل مكان .. وهكذا يحكى لنا التاريخ قصة عجيبة عن الفلاحين المصريين الذين لايقل عددهم عن عشرة آلاف ، والذين أرسلهم الخديوى ليحاربوا من أجل تثبيت حكم الامبراطور النمساوى (ماكسميليان) ضد أعدائه الثوار !!

كان الفلاح المصرى متاحًا دائمًا عبر التاريخ، ولايكلف شيئًا ولايسأل عن مصيره، لأن الألوف هلكوا فى حفر القناة فى ذلك الزمن، وهم عاجزون عن الاحتجاج .. والآن يرغم الفلاح المصرى على الذهاب إلى المكسيك للدفاع عن الحكومة المحافظة على سبيل المجاملة لا أكثر ! طبعًا بلا أجر ولا حمد ولا منة(*) ..

(*) حقيقة وقد أوردها الأستاذ (محمد حسنين هيكل) فى كتابه (من نيويورك إلى كابول) .

وهنا يمكن أن نفهم أن (شعبان) و (عيد) كانا من هؤلاء التعساء الذين وجدوا أنفسهم فى حرب قاسية فى بلد غريب ..

لكن الدفاع ضد حقائق التاريخ كان صعبًا، وسرعان ما تقدمت جيوش الثوار إلى (مكسيكو سيتى)، بقيادة الجنرال (بورفيريو دياز) .. تم اعتقال (ماكسيمليان) وحوكم محاكمة عسكرية وأعدم ..

وطبعًا لايذكر التاريخ حرفًا واحدًا عن هؤلاء الفلاحين المصريين العشرة آلاف الذين هزموا .. هل ماتوا جميعًا ؟ هل هناك من فر ؟ لاشيء ..

لكننا الآن نملك مزية أن نرى اثنين من هؤلاء الفارين وهما يواجهان لحظات قاسية ..

* * *

كان الفلاح المكسيكى مسالمًا بطبعه ..

لهذا لم يؤذ الهاربين لكنه لم يقدم لهما أى عون،

فهو يعرف أن الجنرال (دياز) آت، ولسوف يعرف أية قرى أسدت العون للجنود المصريين، الذين هم الآن ـ برغم إرادتهم ـ جنود (ماكسيمليان)، فإذا أضفنا هذين الفلاحين البائسين القادمين من ريف مصر فى القرن التاسع عشر، لا يعرفان القراءة ولا الكتابة ولا كلمة إسبانية واحدة، لأمكننا أن نفهم أنهما فى ورطة حقيقية ..

كانا يسمعان كلمة واحدة يقولها الفلاحون المكسيكيون الخائفون الذين يغطون وجوههم بقبعات القش :

ـ « رى دى موسكاس !! »

فكان الرجلان ينظران لهؤلاء .. ثم يقرران أنه لاجدوى من هذا المكان .. ويفران إلى موضع آخر.

ذكريات الوطن والنيل وفتاة القرية الجميلة السمراء، والزوجة والولد والمسجد المجاور للترعة .. كلها تبدو شيئًا بعيدًا غريبًا حين تجد نفسك تائهًا فى صحراء المكسيك هاربًا من قوات (خواريز) !

- « رى دى موسكاس !! »

وليتك تعرف ما معنى هذه العبارة .. لكن المترجمين ترف لا يملكه المرء حين يريد ..

أخيراً هما يمشيان الآن فى شبه جزيرة (يوكاتين) فى أطلال مدينة (المايا) العظمى المعروفة باسم (تولوم) .. لا يعرفان هذا .. لا يعرفان كذلك أن هذه المدينة بنيت فى القرن الثالث عشر .. لكن ذلك المبنى العتيق الواقف هناك معروف لنا على الأقل .. إن اسمه معبد (فريسكو وكاستيللو) .. وهو من الآثار المهمة جداً هنا ..

هنا سمعا صوتاً من بعيد يصيح :

- « **لوس دوس سولادوس إيجيبسيوس إستين إن لاس روناس !** »

وراح الصدى يردد هذه العبارة مراراً ..

لم يفهما ما يقال لكنهما عرفا على الأقل أن هناك من يعرف أنهما هنا .. وهذه النبرة عدوانية عسكرية بلا شك .. فليس المتكلم من الفلاحين البسطاء ..

قال (عيد) وهو يلهث ويتحسس بطنه المنتفخ :

- « لقد تعبت يا (شعبان) .. فليفعلوا بنا ما يريدون .. سيان قتلونا الآن أم بعد يوم أو يومين »

قال (شعبان) بعينين لامعتين :

- « لن يقتلونا .. ولسوف نراوغهم داخل هذه الجدران .. »

لابد أن وساوس القوة كانت تطارده فى مصر .. أكثر من مرة لعب لعبة التحطيب أو تصارع مع أقرانه ..

وبرغم أن حاله صار مزرياً فإن إرادة القتال لم تبرحه بعد .. يريد أن يثبت أنه (جدع) ...

- « **لوس دوس سولادوس إيجيبسيوس إستين إن لاس روناس !** »

الصوت يتردد فى إلحاح ...

فترد عليه أصوات تقول عبارات غير واضحة لكنها تنتهى دوماً بـ :

- « رى دى موسكاس !! »

يهرع الرجلان إلى داخل المعبد .. الظلام والرطوبة .. هذا أفضل من الشمس الحارقة بالخارج ..

هناك أشياء لايجدها إلا هؤلاء الأشخاص الذين لايرون شيئاً .. ويمكننى أن أفترض اليوم أن قدم أحدهما تعثرت فى حلقة تخرج من الأرض .. وهنا خطرت لهما الفكرة ذاتها : لماذا لايشدان هذه الحلقة ؟ على الأرجح هناك غرفة سرية تحت قدميهما .. يختبئان فيها حتى ينصرف الجنود ..

فعلاً كما قررا ، وكانت الغرفة بالفعل .. ثمة درجات حجرية هابطة ، وثمة ...

هنا حدث الشىء المتوقع ..

لقد انغلقت الفتحة فوق الرأسين الخائفين ..

وساد ظلام دامس ..

لكنه ليس دامساً جداً ..

حين بدأت عيناهما تعتادان الظلام قليلاً استطاعا أن يدركا أنهما فى مقبرة على الأرجح .. ثمة أجساد مكفنة .. مساخيط كما يؤمنان هما ، ومومياوات كما نعرف نحن .. مومياوات تجلس القرفصاء متراصة فى صفوف ملاصقة للجدران .. كل مقابر (المايا) تبدو كذا ..

لابد أنهما ارتجفا ، ولابد أنهما بدآ يبسملان ويحوقلان وهما يتحسسان طريقهما إلى الداخل أكثر ..

هنا سمعا صوت الذباب ..

ذباب .. ذباب كثير .. ملايين منه تحوم هنا وهناك وتصطدم بوجهيهما .. لم يكن هذا غريباً فى مقبرة ، وهما خشنان لايهتمان بهذه الحشرات كثيراً .. لكن ما لاحظاه هو أن هذه الجحافل غاضبة انتحارية قليلاً .. كأنما ضايقها أن يقتحم أحد خلوتها ..

هناك ضوء خافت يأتى من مكان ما .. بالتأكيد هناك مصدر للضوء ..

ـ « تعال يا (عبد) .. لابد من مخرج .. »



يدنو الجنديان التعسان من الجسد الذى لا تظهر معالمه من كل ما احتشد عليه من ذباب ..

مصدر الضوء كان قاعة فى حجم صالة دارك لو كنت تسكن فى منزل متسع .. وكان مصدره مجموعة من المشاعل .. من أوقدها ؟ من يعنى بها ؟ لايمكن معرفة الإجابة ..

لكن هذه الغرفة كانت المصدر الأساسى للذباب ..

ملايين منه تحتشد على الجدران .. تحلق .. تزحف .. تتزاوج .. تئز ..

والأهم هنا أن كل الذباب يأتى من مصدر واحد ..

هذا المصدر هو ذلك الجسم الجالس فى صدر القاعة ..

متوجسين لكنهما يمضيان بلا تفكير كأنهما فى مأساة إغريقية ، يدنو الجنديان التعسان من الجسد الذى لاتظهر معالمه من كل ما احتشد عليه من ذباب ..

بأيديهما الخشنة ينفضان الذباب عن ذلك الجسد ليتبينا من هو .. أو ما هو ..

هنا فقط دوت الصرخات ..

هنا فقط عرفا ما كان تحت كل هذه الأسراب ..

★ ★ ★

6- شكوك ..

فتح لى السفاح الأصغر الباب .. فقلت له باسماً مكشراً عن أنيابى :

- « هل ماما هنا ؟ »

نظر لى فى برود وكراهية ، ثم أوصد الباب فى وجهى بطريقة أقرب إلى الصفعة .. ووقفت حائراً نحو عشر دقائق لا أدرى .. هل أدق من جديد أم أنصرف ؟ وهل الأم غير موجودة أم أن الوغد الصغير لم يقل لها شيئاً .. أو هى موجودة ولا ...

بعد قليل ظهر لى ذلك الرجل الذى يشغل أهم منصب فى العالم .. كان منكوش الشعر يرتدى منامة من (الكستور) ذات خطوط طولية خضراء ، وأنا منذ نعومة أظفارى لا أثق كثيراً بالذين يلبسون منامة (كستور) ذات خطوط طولية خضراء .. صافحنى بفتور ودعانى إلى الدخول .. فقلت له فى حرج :

- « معذرة .. إن الكتكوت الصغير قد فتح ولم .. »

- « منيراااااااااااااه !! »

وقبل أن أسأله عن سبب الصراخ مادمت لم أفعل شيئاً مشيناً ، ظهرت السيدة (منيرة) بوقارها الأسود ، فصافحتنى وابتسمت ابتسامة شاحبة كأنما صار لنا سر صغير مشترك ..

كانت المقاعد مبعثرة غير مرتبة ، وكل مطافئ التبغ مليئة .. هذه آثار يوم العزاء السابق .. وهم يستعدون ليوم عزاء جديد .. لكن بعد الإفطار ، لهذا لم يفهموا سر حماستى المشبوبة للعزاء ..

طلبت من أخيها أن يذهب ليفطر مع الأطفال فرمقتنى بعين نارية :

- « تفضل لنتناول الإفطار معنا .. »

- « شكراً .. لقد سبقتك .. »

فانصرف مع القراصنة .. هنا نظرت لها فى جدية وسألتها همساً :

- « قصة الميدالية هذه .. هل هى صحيحة ؟»

ابتسمت وقالت :

- « هل وجدتها لديك ؟»

- « بالطبع لا ، لست لص ميداليات يا سيدتى لو كنت تفهمين ما أعنيه .. لكنى راغب فى معرفة كل شىء .. »

قالت فى بساطة وهى تعبث فى عنقها الشحيم :

- « لا يوجد ما تعرفه سوى ما قلته لك .. كنت أكذب عليك حين جئتك طالبة العون .. الحقيقة أنى كنت قد كونت فكرة عن الموقف بالتفصيل .. ولم يبق لى إلا الخلاص من الميدالية ..»

- « كان بوسعك أن تعطيها لأى واحد .. »

- « أؤذى إنسانًا بريئًا ؟ ما كنت أحسبك بهذه القسوة ! »

هنا صعد الدم إلى رأسى ، ولابد أن قلبًا صغيرًا

نبت هنالك على جبهتى حيث كان الوريد الذى يتوسطها .. وقلت بصوت هامس أقرب للصياح :

- « صحيح .. أنا لست بريئًا .. نسيت هذا ! »

- « أنت برىء يعرف هذه الأشياء .. هذا ما فكرت فيه ! »

أخذت شهيقًا عميقًا وتمالكت أعصابى .. لأسباب كهذه لا يتزوج الأذكياء مثلى ..

- « من وضع فى ذهنك قصة الميدالية هذه ؟»

- « أهل العلم .. لقد سألت أحدهم .. وقلت له إن كل شىء بدأ بعد عيد ميلاد زوجى الأربعين .. سألنى عن الهدايا التى تلقاها زوجى فى عيد ميلاده ، فقلت له .. هذه الميدالية رخيصة الثمن تلقاها هدية من خالته .. أول هدية تقدمها له منذ عشرة أعوام .. لاحظ أن المرأة الشمطاء كانت ترغب فى تزويجه ابنتها قبل أن يفوز بى ! والفتاة لم تتزوج حتى اليوم . لقد استحقت لقب عانس منذ عشرة أعوام .. »

هنا بدأت أفهم :

- « إذن .. أنت تعتقدين أن هذا عمل سحرى .. عمل تنتقم به الأم لابنتها من العريس الهارب ومنك .. »

- « أنت تعرف هذه الأمور خيرًا منى .. »

- « ولم تسألى نفسك لحظة لماذا لم يحاصر الذباب تلك المرأة ؟ »

- « لأنها كانت تعرف من البداية .. هذه الميدالية لا تعمل إلا مع شخص غافل .. غـ .. ا .. فـ .. ل ! »

حككت صلعتى الغافلة مفكرًا وسألتها :

- « لكنى الآن أعرف .. »

- « لم تكن تعرف حين قبلتها منى وحين سرقتها لنفسك .. »

- « من قال هذا الكلام الفارغ ؟ »

- « أهل العلم كما قلت .. هم يعرفون هذه الأشياء .. »

- « ولماذا لم نلق حتى الآن الزبون السابق لخالة زوجك ؟ لابد أن هناك شخصًا ما حاصره الذباب . فأين هو ؟ »

- « علمى علمك .. لكن زوجى أخذ منها الميدالية وعانى وتعذب .. وحين أخذتها منه أخيرًا وقدمتها لك كان الوقت قد فات .. »

رحت أفكر فى كلامها .. قصة معقدة جدًا ، لكنها لاتخلو من إحكام .. ومعنى كلامها أن علىَّ أن أجد أبله يقبل الميدالية منى دون شك .. هذا بالطبع ما لم أكن مولعًا بالذباب ..

لكن من قال إن الميدالية معى ؟؟؟

الغريب فى التفكير السخيف غير المنطقى هو أنه مُعد .. سرعان ما تجد نفسك تفكر بالطريقة ذاتها .. أذكر مثلاً أننى كنت أنطق فى طفولتى لفظة (رقْم) بشكلها الصحيح أى بتسكين القاف ، حتى وجدت نفسى وسط أناس يصرون على فتح القاف .. وسرعان ما وجدت أننى أفتح القاف بدورى .. أمس

سمعت مذيع نشرة يقرؤها بتسكين القاف فتأففت أذنى لهذا الخطأ !

حييت السيدة ووعدتها أن أفكر فى الأمر، ثم انصرفت ..

* * *

موعد الغداء .. لن أنتهى أبدًا من هذا الهم المقيم .. ينتهى الإفطار فتطرأ مشكلة الغداء .. ينتهى الغداء فيكون السؤال : ما العشاء ؟ لعل الناس يتزوجون كى يجدوا من يزيح عنهم هذا العبء .. هذا من الأشياء التى تجعل السفر المرتقب إلى أمريكا محببًا للنفس .. إن تغيير الروتين مطلوب دائمًا .

إما أن أذهب الآن إلى المطعم القريب وإما أن ألفق شيئًا بسرعة .. كانت هناك علبة أنشوجة أخشى أن آكلها من فرط ملوحتها .. ارتفاع ضغط فنزف مخى .. هذا أقل مايمكن .. لكنها الحل الوحيد الآن ..

ذبابة سمجة .. إنها تلاحقنى كأننى تحولت إلى قطعة سكر فجأة ..

أفتح علبة الأنشوجة .. فى علم الأمراض يطلقون على خراج الكبد الأميبى اسم (منظر صلصة الأنشوجة)، وهو تشبيه طبى شاعرى آخر مثل (منظر مربى الخطم) و (منظر القهوة باللبن) .. دعك من منظر (إسهال حساء الفاصوليا) .. تلك التشبيهات التى لاتشجع الشهية كثيرًا، وهذا مايسمونه (علم أمراض الأطعمة الجاهزة Delicatessen Pathology)، فلابد أن الأطباء الأوائل كانت معدتهم من حديد ..

ذبابة أخرى .. غريب هذا .. وذبابة ثالثة ..

لا أعتقد أن هناك مايجذب الذباب فى المطبخ، لكن الطقس ليس مناسبًا لهذا الزحام كله ..

قمت بتسخين رغيف خبز من الثلاجة وجلست لآكل .. كنت فى الصالة لأتمكن من متابعة التلفزيون فى أثناء الطعام كما تعودت ..

ذبابة .. ذبابة ..

أخيرًا بلغ منى السأم مبلغه فاتجهت إلى الحمام وأحضرت علبة المبيد إياه .. وضغطت على أسنانى وأطلقت دفعة لابأس بها على المائدة وعلى الأشوجة وعلى كل شىء .. لو مات الذباب فقط فهذا نصر ، ولو تسممنا ومتنا معًا فقد استرحت ..

ثم عدت أواصل الأكل .. إن المبيد يعطيه مذاقًا محببًا .. ولكن ...

ذبابة أخرى !

هنا فقط بدأت أتوتر .. وشعرت بالشعر ينتصب على جانبى رأسى ..

ما معنى هذا ؟ هل يعنى ...

* * *

تأكدت من خلو غرفة النوم من الذباب وأخلدت لنوم عميق .. قلت لنفسى إننى قد أصحو صباحًا لأجد أنى فى وضع مثير للشفقة ، أو يتضح أن الأمر

كله نوع من (فتح القاف) فى كلمة (رقم) .. لقد أصابتنى الزوجة بالعدوى ، ولئن كان ما أصاب زوجها حقيقيًا فهو ليس بالضرورة معديًا ..

لكنى نمت برغم كل شىء .. ونمت جيدًا ..

فتحت عينى فى الصباح لأجد أن الوضع لم يتحول إلى كابوس .. ثلاث أو أربع ذبابات فى غرفة النوم ليست مما يثير القلق ولو أننى لم أفهم بعد من أين أتت ..

لكنى إذ تأهبت للذهاب للعمل أدركت أن الأمر جد غريب ..

لايوجد إنسان يحوم الذباب حوله كلما اتجه لمكان .. إلا لو كان هذا الرجل مجروحًا حيًا ..

أنتم تعرفون تلك الكومة من القمامة الموجودة -كنصب تذكارى- قرب مدخل مستشفانا .. لقد مررت جوارها للحظة .. هنا حدث شىء غريب . لقد بدأ الذباب يتخلى عن القمامة وبدأ يحوم حول رأسى ويتعلق بثيابى ..

لقد صارت الظاهرة رسمية إذن .. من الصعب أن أتظاهر بالعكس ..

بالطبع لم أستطع التركيز فى عملى على الإطلاق ، لأن أذنى كانتا تطنان ، وكنت أعد عدد الذباب على معطف د. (رأفت) الأبيض بينما هو يكلمنى فى موضوع مهم .. وطلبت من العامل أن يرش الغرفة بالمبيد أكثر من مرة . كما لاحظت أن عنابر المرضى فيها ذباب أكثر من اللازم .. وجعلنى هذا عصبيًا ..

الحقيقة أننى كنت أنهى الأمور الفرعية سريعًا استعدادًا لسفرى إلى أمريكا ، وكنت سعيدًا بفكرة الفرار من غد لا أعرف حقيقته جيدًا ..

ترى هل أحمل معى الذباب إلى هناك ؟ لا أعرف .. لكن هناك شيئًا لابد من عمله قبل أن أسافر ..

* * *

ـ « أريد الميدالية .. »

ـ « ليست معى يا دكتور (رفعت) .. »

ـ « وهى ليست معى .. »

ـ « وليست معى .. أنا لا أهيم بها حبًا .. »

وساد صمت طويل على الهاتف .. أنا أتمنى أن أقول لها إنها كاذبة أو مجنونة وهى تتمنى أن تقول لى إننى أحمق وإنها ترجو ألا أتصل بها ثانية .. لقد انتهت علاقتها بهذه القصة للأبد ..

عدت أقول لها فى صبر :

ـ « مدام (منيرة) .. أعترف أن الذباب بدأ يتكاثر من حولى .. لا أعرف السبب لكن هناك حلاً واحدًا لا أؤمن به .. أنت تعرفين أن الغريق يتعلق بقشة .. لابد من أن أجد هذه الميدالية بأى ثمن .. »

ـ « ستجدها عندك .. فقط ابحث هنا أو هنا .. »

ـ « لا توجد لدى مصلحة فى إخفائها بأى شكل .. لست رائق المزاج للعب دور الضحية الهستيرية .. »

قالت فى إصرار وتعب ، وكأنما رأت ما يكفى من غباء الناس :

ـ « لا أقول إنك أخفيتها عامدًا .. لربما أضعتها .. »

عدت أفكر فى ضيق .. من الجلى أنها تؤمن إيمانًا مطلقًا بأن الميدالية ليست عندها .. ومعنى هذا ببساطة وبحكم خبرتى بالناس أن الميدالية عندها .. كلما كان الأمر خطأ كانوا على ثقة بالغة بصحته ..

ذبابة تحوم من حولى .. ذبابة أخرى تتسلق سترتى ..

يجب أن أجد تلك الميدالية .. يجب ..

* * *

فى المساء رحت أعد الحقيبة ، وقد بدا لى أن الذباب سيكون من الأشياء المهمة التى آخذها معى على سبيل الذكرى .. ذباب الوطن الذى لا أستطيع الابتعاد عنه ..

هنا دق جرس الهاتف فهرعت أرد متوجسًا ..

كان هذا صوت السيدة (منيرة) تقول لى فى شىء من الحرج :

ـ « د. (رفعت) .. أنا آسفة .. يبدو أنك كنت محقًا .. »

ـ « أنا محق أكثر الوقت للأسف .. ولكن فى أى شىء ؟ »

بعد دقائق صمت قالت :

ـ « الميدالية عندى بالفعل .. لقد وجدتها فى الشقة .. »

كاد يصيبنى ذلك النوع من الرثاء للنفس الذى يدفع المرء للبكاء بعد اكتشاف براءته ، وبصوت مختنق صحت :

ـ « ألم أقل لك ؟ »

ـ « آسفة .. صدقنى لم أتعمد أن أخفيها .. »

طيلة الوقت هى مرغمة على كل شىء .. مرغمة على إعطائى الميدالية لتخلص زوجها .. مرغمة على إضاعتها بينما أحترق أنا فى أتون القلق .. والجميل هنا أنها ستنسى كل شىء عن هاتين المحادثتين بعد

دقائق . وفى المحادثة التالية ستقول لى إن ذاكرتها حديدية ولا تنسى على الإطلاق ..

ـ « أنا قادم .. »

قالت فى كياسة :

ـ « لا أرى إن كان الوقت مناسبًا .. أنت تعرف أنه بعد وفاة زوجى ... »

صحت مغضبًا وقد أوشك صوتى على بلوغها دون سماعة :

ـ « **اسمعى .. ليس الوقت مناسبًا للتظاهر بالأنوثة .. لقد تغيرت حياتى جذريًا منذ قابلتك والمرحوم زوجك .. وكنت أنت سبب أكثر هذه المصائب لو صح ما تقولين .. وقد فعلت هذا كله عامدة .. لهذا أريد هذه الميدالية الآن .. ولا أبالى بأية حجج تقال .. إننى مسافر فى الصباح ..** »

ووضعت السماعة ..

وفى الطريق إلى دارها (كانت معى سيارة وقتها قبل حادث القرية إياه) رحت أفكر فى غيظ .. إن

كمية الإيذاء التى سببتها لى هذه المرأة لأعظم من أن أدركها .. تعطينى ميدالية تعرف ـ أو تعتقد ـ أنها تسبب لعنة ما . ثم تضيعها ببلاهة .. ثم حين تجدها تقرر فجأة أن تلعب دور المحافظة التى تقدس ذكرى زوجها ولا تسمح للأوغاد ـ مثلى ـ بزيارتها بعد العاشرة مساء وهى فى بيت أهلها .. وليتها تفتح رأسى لتدرك أننى أفضل مصاحبة سرب من سحالى (البازيليك) على أن أراها مرة أخرى بوجهها المكتنز السمين المتظاهر بالوقار ..

فتح لى أخوها شديد الأهمية الباب وقبل أن أفتح فمى انطلق فى الصراخ :

ـ « (**منير**ااااااااااااه) !! »

ثم ظهرت هى من الداخل متظاهرة بالخفر والارتباك .. الآن تتظاهر بأن لها سمعة وأننى أسىء لها .. لهذا مددت يدى دون كلام .. فوضعت فيها الميدالية دون كلام هى الأخرى ..

سألتها فى اشمئزاز وأنا أذب الذباب عنى :

ـ « أين وجدتها ؟ »

نظرت إلى أسفل إلى حيث كان السفاح الصغير ابنها يرمقنى فى شك وكراهية وهو يرسم حركات قبيحة بوجهه .. وقالت :

ـ « كانت فى حاجيات (سامح) .. لقد وجدها على الأرض فاحتفظ بها .. لكن أخاه الأكبر (فتن) عليه وأخبرنى .. »

نظرت للطفل .. طبعًا .. هذا شىء متوقع فى هذه الأسرة المزعجة .. لن أندهش لو كان الفقيد يفضل صحبة الذباب على صحبة هؤلاء .. كل هذا ويتكلم عن حياة هادئة و « لقد نلت قدرًا من كل مسرات الكون » .. إن للناس أذواقًا غريبة ..

المهم أنى غادرت المكان والميدالية فى جيبى ، وقلت لنفسى : على الأقل أنا أمسك بما يمكن أن يكون السبب .. هذا هو الخيط الوحيد لدى ...

سأسافر وأتحاشى الذباب .. ولدى عودتى سيكون لدى وقت كاف للتفكير فى هدوء ...

* * *

7 ـ قارة أخرى ..

كانت المشكلة أقل فى جامعة (بايلور) بـ (تكساس) ..

لا أدرى إن كان على أن أتكلم عن هذه الجامعة العريقة ، فأرتكب الخطأ الشائع لدى (سومرست موم) فى قصصه ، حين كان يتكلم عن أماكن وشخصيات لن يكون لها أى دور فى القصة بعد ذلك .. حسن .. يمكن القول إن جامعة (بايلور) كانت مجرد مرحلة تمهيدية لما بعدها ، لكنى أذكر فقط للتسجيل أن هذه الجامعة عريقة تعود لعام 1845 ، ومركزها فى (واكو) فى (دالاس) التى تقع فى شمال شرق ولاية (تكساس) ..

إن (دالاس) مدينة كبيرة .. هى ثانية المدن فى ولاية (تكساس) بعد (هوستون) ، كما أنها ثامنة مدن الولايات المتحدة فى ترتيب الحجم .. وتمتاز بعدد لا بأس به من الجامعات والمراكز الثقافية ..

لقد فرغت من اعترافى .. الآن يمكننى أن أموت مستريح البال !

أقول من جديد إن المشكلة كانت أخف وطأة هنا ..

ربما كانت الإجابة هى أن الذباب أقل ، وربما لأننى تصرفت بحذر بالغ .. كنت أتحاشى التنقل على الأقدام ، وأغلق زجاج السيارة التى أركبها ، وفى الفندق الذى أقيم فيه لم أفتح نافذة واحدة ، وهكذا لم أر النور ولا الهواء تقريبًا لمدة ثلاثة أيام ..

قاعة المؤتمرات مكيفة موصدة .. قاعة الطعام مغلقة .. وهى حياة لا تطاق لكن يمكن تحملها لفترة قصيرة ..

ثم إنى ابتعت من إحدى الصيدليات نوعًا من الدهان الطارد للحشرات كلها ، ورائحته عطرية قليلاً .. فحرصت على أن أدهن به كل أجزاء جسمى المكشوفة : الوجه واليدين ..

لم أكن خائفًا من الذباب لكن من النظرات الفضولية ..

وخطر لى أننى خائف حقًا من معرفة المدى الذى بلغته المشكلة .. لربما وصلت إلى الذروة التى لايمكن تصحيحها .. لربما لو خرجت إلى الهواء لوجدت نفسى فى تلك المنظر المريع الذى رأيت به (مختار) فى شقته ..

لاأريد أن أعرف .. ليس الآن ..

من بين كل الأهوال التى رأيتها وسأراها كان هذا أخطرها .. إن حياتك وسط جحافل الذباب التى تقف على كل شىء وتحيل حياتك جحيمًا لأمر مروع حقًا .. أن تتحلل ببطء وأنت عاجز عن إيجاد حل .. فيما بعد قرأت لمخرج الرعب الكندى الفذ (ديفيد كروننبرج) تعبيرًا راق لى : إن أشد أهوال الرعب هى تلك المتعلقة بتحلل أجسادنا ذاتها ..

طبعًا لايمكن أن آتى إلى الولايات المتحدة من دون أن أتصل بصديقى العتيد (هارى شيلدون) فى (فلوريدا) ، الذى كانت لى معه قصص لابأس بها .. هذا الفتى المندفع الذى يذكرك بأبطال الأفلام

المستعدين للشجار و (الضرب) فى أية لحظة .. وكما قلت ألف مرة من قبل : إن المواطن الأمريكى نفسه شخص لطيف المعشر على الأرجح ، حاضر الدعابة يمكنك أن تحبه بسهولة .. لكن للأمريكيين بعض العادات السيئة حين يحتشدون معًا ..

تمنى لى أن أنعم بوقت طيب واعتذر عن المجىء .. الحقيقة أننى كنت فى أمس حاجة إلى صديق قديم هنا ..

* * *

انتهى البروفسور الإسرائيلى (ديفيد كيمنسكى) من إلقاء محاضرته .. إنه رجل قصير القامة أصلع أشكينازى له عينان ضيقتان سامتان وخصلة شعر أسفل ذقنه من طراز (السكسوكة) .. وأعترف هنا - من دون تعصب ولا تحيز - أننى لم أقرأ حتى اليوم بحثًا إسرائيليًا بارعًا .. هناك يهود كثيرون مبدعون لكن الصهاينة المتعصبين الذين يذهبون إلى فلسطين ليذبحوا الأطفال ، هم على الأرجح بلا موهبة ..

إن قشدة الفكر والفن تفضل البقاء حيث هى فى أمريكا وأوروبا حيث فرص الحياة والكسب أفضل .. بعضهم يكتفى بمعاونة الصهاينة بالمال أو التعاطف المعنوى ، وبعضهم - مثل (أينشتاين) و (شابلن) - استنكر فكرة إسرائيل ذاتها واتهمها بالتعصب والجنون ..

بعد المحاضرة كان الرجل يقف وسط مجموعة من مريديه يثرثر ويضحك ..

صافحته فى حرارة وهنأته على كل هذه العبقرية ، وقدمت له نفسى :

- « بروفسور (ريفات إيزميل) .. أمى يهودية بولندية لكن أبى من أصول عربية .. لم أر إسرائيل قط .. »

- « هذا يفسر ملامحك .. تبدو (منهم) إلى حد كبير .. وهل تتكلم البولندية إذن ؟ »

- « لا .. كانت العربية والإنجليزية هما لغتا التخاطب فى بيتنا .. »

ثم جرنا الحديث إلى إسرائيل ، فراح يحكى لى عن تقدم العلوم بها ومدى الرقى الإنسانى الذى بلغته باعتبارها دولة غربية وسط الشرق الأوسط .. واحة من التحضر وسط صحراء بدوية قاحلة ..

كانت شفتاى ترجفان انبهارًا .. ورحت أشرب كلامه شربًا ..

بعد ربع ساعة كان قد تعب من الثرثرة ، فانحنيت وطبعت على ياقة سترته قبلة محبة واحترام :

ـ « إننى أحيى فيك (آرتز يزرائيل) ذاتها .. الأسطورة التى صارت بفضل رجال مثلك حقيقة .. »

ثم بيد مرتجفة حماسًا أخرجت الميدالية من جيبى وقدمتها له :

ـ « لا أجد شيئًا أقدمه لك إلا هذه .. إنها رخيصة الثمن عظيمة القيمة .. هى آخر ما بقى من أمى بعد المحرقة فى (أوشفيتز) .. لسوف تكون معك فى أمان .. »

ارتجف بدوره وأمسك الميدالية التى اشترتها خالة (مختار) له لتكيد لزوجته ، ودمعت عيناه تأثرًا ، ثم دسها فى جيبه وقال :

ـ « سأحافظ عليها أيها العزيز .. أعدك بذلك .. »

حييته وابتعدت فى وقار ..

أخيرًا تخلصت من الميدالية بطريقة خالية من الدماء .. ولكن هل يختفى الذباب بعد هذا ؟!

* * *

فى الرابعة صباحًا صحوت من النوم فى الفندق ، وقلت لنفسى :

ـ « أنت أحمق .. الطفل المزعج الذى اعتقد أن اسمه كان (سامح) .. لقد أخذ الميدالية وأخفاها فى حاجياته .. ولو كان موضوع الميدالية صحيحًا لزال الذباب عنك ليطارد الطفل ! »

نعم .. أنا أحمق .. ولن تختفى هذه اللعنة ..

* * *

حقًا لم يختف الذباب !!

حين غادرت الفندق مجربًا المشى الحر ، ابتعدت بضعة أمتار ، وكان الطقس حارًا إلى حد كبير .. لاغرابة في أن يكون الطقس هنا حارًا ، لكن هذا لايبرر أن أرى كل هذا الذباب .. المارة ينظرون لى فى دهشة .. فتاة تنظر لى وتهز رأسها .. عاشقان يتوقفان عن الهمس وينظران لى بعيون مفتوحة ..

أكف لأجد أن نحو عشرين ذبابة - من المستحيل طبعًا أن تزعم أنك عددتها - تحوم حولى وتتسلق ثيابى ، وتمشى على عويناتى .. الأغرب أن الكثير منها يأتى من أماكن لاأعرفها ..

ورجل شرطة زنجى يدنو منى فى بطء .. لايعرف هل هذه تهمة يمكن أن يعتقلنى بها أم لا .. فقط يقف وينظر لى ونظراتى الحائرة ، ثم يمد يده نحوى :

- « أوراقك .. »

أخرجت له كل ما كان فى جيبى ، فنظر إليها نظرة لاتعى شيئًا ، وقال :

- « سيدى .. لاأريد أن أكون وقحًا ، لكن ربما أفادك حمام سريع الآن ! »

هززت رأسى فى ارتباك ، وانطلقت عائدًا إلى الفندق .

كنت أمشى بسرعة جعلت غيوم الذباب حولى تتبدد إلى حد ما ..

وعلى باب الفندق رأيت ذلك البروفسور (كيمنسكى) واقفًا يثرثر مع فتاة حسناء .. لايبدو أن ذبابة واحدة تحوم حول هذا الوغد .. رآنى فضم كفيه معًا ولوح فى الهواء يمرح :

- « الرمز معى ! لاتقلق عليه ! »

صحت وأنا أجد السير كى لا أضطر للتوقف :

- « **لا تتخل عنه أبدًا .. إن روح أمى تناديك !** »

فما إن دخلت حجرتى ، حتى بحثت عن مبيد الحشرات فأفرغت كمية لابأس بها فى الهواء ، وأعدت دهان أطرافى بالدهان الذى يطرد الحشرات ..

وارتميت على الفراش مفكرًا ..

إنه لمأزق مخيف ..

هل كتب عليّ أن أمضى حياتى وسط سحب مبيد الحشرات حتى أموت بالسرطان ، أم أظل وسط الذباب ؟

إذن فرضية الميدالية كانت خطأ وكان على أن أتوقع هذا من السيدة (منيرة) التى لايمكن أن تقدم حلولا عبقرية لأى شىء .. فقط هى بنت مجموعة من الاستنتاجات الخاطئة التى لاتخلو من غيرة النساء و (العمل) وفكرة الخلاص من اللعنة بنقلها لشخص آخر .. وهى فكرة محببة فى وجداننا الجمعى .. ولأسباب كهذه كان مرضى الطاعون فى القرون الوسطى يقتحمون بيوت الأصحاء على أساس أن إصابة الأصحاء يمكن أن تشفيهم هم ..

فرضية الميدالية خطأ .. إذن لماذا يطاردنى الذباب ؟ هل أصبت بعدوى ما ؟ وهل هناك مرض يسبب هذه الأعراض وقد أصبت به لدى زيارتى الرجل ؟

لا أفهم ..

حقًا أنا بحاجة إلى عقل آخر قبل أن أجن ...

* * *

عند السادسة مساءً دق جرس الهاتف فى حجرتى، فرفعت السماعة ..

جاء صوت (البورتر) تقول لى بصوتها المهذب الرتيب :

ـ « د. (إسماعيل) .. هناك مكالمة لك من (نيويورك) .. »

ثم جاء الصوت يقول :

ـ « د. (إسماعيل) .. أنا (سام) .. (سام كولبى) .. »

(سام كولبى) ؟ هذا الاسم له رنين يهودى غير مريح .. من هو ؟

هنا عاد إلى شريط الذكريات .. ذلك التصلب لليهودى

الذى كان سبب لقائى بدكتور (لوسيفر) ـ وهى ليست خدمة جميلة جدًا كما تلاحظون ـ والذى جعلنى أضل فى عوالم (بو) الكابوسية .. اليهودى المرتبك البائس الذى يذكرنى بدعابتنا عن فقراء اليهود .. فلا هو خبيث بحيث يملك الثروة والنفوذ ، ولا هو برىء طاهر الذيل بحيث يستحق مكانه بين الأخيار ..

لكن أن يتصل بى هنا بالذات .. هناك معنى مريب لهذا كله ..

ـ « مرحبًا (كولبى) .. هل أجريت جراحة البروستاتا بعد ؟ »

قال فى إنهاك :

ـ « ليس بعد .. لا أثق بجراحى المسالك هنا .. لكن هذا ليس موضوعنا .. »

ـ « إننى أرتجف هلعًا من موضوعنا هذا .. »

ـ « أنا فقط مكلف بإبلاغك بشىء مهم .. هناك

زميل مخلص ـ وإن كان غريب الأطوار نوعًا ـ يدعى (جيمس موهون) .. إنه راغب فى لقائك ، ولا أعرف السبب .. أرى أن تستقبله جيدًا وتصغى له بانتباه ، لأن غضبه ليس بالشىء المحبب للنفس .. ثم إنه رجل يعرف مايريد .. »

فكرت للحظة .. غريب الأطوار ؟ (كولبى) نفسه يرى هذا الرجل غريب الأطوار .. فعلىّ ألا أندهش لو كان القادم بثلاث عيون أو يمشى على الجدران ...

ـ « هل اتصلت لهذا فقط ؟ ومن قال لك إننى فى الولايات ؟ وكيف عرفت الفندق ؟ »

ـ « هو ! »

ثم وضع سماعة الهاتف ...

* * *

بعد ساعة جاء (جيمس موهون) ..

ومن النظرة الأولى عرفت أنه رجل مخيف حقًا ..



يمكنك أن ترى معى أنه رجل فارع القامة يرتدى قميصًا أسود وسترة سوداء وربطة عنق سوداء ..

8ـ (موهون) يعرف ..

اسمح لى أن أقدم لكم (جيمس موهون) ..

يمكنك أن ترى معى أنه رجل فارع القامة يرتدى قميصًا أسود وسترة سوداء وربطة عنق سوداء ، فلا يعكر كل هذا السواد إلا قلادة فضية ضخمة تتدلى على صدره .. له نظرات حادة ولحية منمقة تحيط بفمه على طراز (دوجلاس) كما يسميها الشباب .. يلبس حذاء أبيض شاهق البياض مما يذكرك بقتلة المافيا فى الثلاثينات .. فلو كان يحمل صندوق كمان يضع فيه بندقية آلية لاكتملت الصورة ..

وتوقعت فى أية لحظة أن يقول لى :

ـ « إن الأسرة تريدك .. يبدو أن (فلون) غاضب .. »

الحقيقة أن فيه الكثير من د. (لوسيفر) لكنى قد قابلت هذا الأخير كثيرًا بحيث لايمكن أن تختلط

الأمور علىّ .. فإذا أضفنا المظهر الغريب إلى اسم (موهون) الرهيب الذى لايمكن أن يكون فى شهادة ميلاده، إلى تقديم (كولبى) له .. يمكن القول إن هذا الرجل ساحر أو وسيط أو شىء من هذا القبيل ..

قال لى بلهجة تدل على أنه أمريكى جدًا :

ـ « أعتقد يا بروفسور (إسماعيل) أن عندك فكرة عن قدومى .. »

كان صوته قويًا محببًا .. هناك أصوات تشعر أنها تؤكل ولاتسمع ..

قلت له وأنا أتأكد من غلق الباب :

ـ « واضح أن (سام كولبى) صديق مشترك .. »

قال فى هدوء :

ـ « أنا (جيمس موهون) .. لنقل إننى مهتم بالظواهر الخارقة للطبيعة .. »

ـ « ومن ليس كذلك ؟ »

قلتها محاولاً إفشاء روح الدعابة .. طبعًا لن يغيب عن ذهن القارئ أننى أصررت على أن يكون اللقاء فى غرفتى بالفندق .. هذا هو المكان الوحيد الخالى من الذباب أو الذى أستطيع السيطرة على دخول الذباب إليه ..

قال الرجل :

ـ « سأسمح لنفسى ببعض استنتاجات .. أنت عاجز عن مغادرة الغرفة .. أليس كذلك ؟ »

قلت فى عجب :

ـ « بلى .. ولكن ... »

ـ « وسأسمح لنفسى بافتراض أن الموضوع يتعلق بهجوم الذباب .. »

هنا فقط بدأت أتوتر .. جلست أمامه وفتحت فمى فى بلاهة .. ها هو ذا السر العظيم يكشف أولى طبقات الغمام الكثيفة المحيطة به .. أنا متأكد من هذا ..

ـ « لنفترض أن هذا صحيح .. إذن ؟ »

ـ « أعتقد أننى أعرف مشكلتك .. وإن كنت لا أزعم أننى أعرف حلها .. »

* * *

قال (موهون) :

ـ « كنت طيلة حياتى مهتمًا بأمور شعب (المايا) .. لأكون أكثر دقة كنت مهتمًا بأسرارهم الغامضة وسحرهم .. ونحن لسنا بعيدين عن المكسيك على كل حال .. الموطن الأصلى لهذا الشعب البائس الغامض الذى بلغ ذروة حضارته فى القرن السادس قبل الميلاد ..

« إن أساطير (المايا) كثيرة وأسرارهم لا تنتهى، تنتظر الإماطة عن لثامها يومًا ما .. وهو ما لن يحدث على الأرجح ..

« إلا أن هناك أسطورة جذبت انتباهى بشكل ما تتعلق بـ (ملك الذباب) .. أو (رى دى موسكاس)

كما يقول القوم هناك بلغتهم الإسبانية طبعًا .. أسطورة حديثة نسبيًا هى ..

« هناك فى شبه جزيرة (يوكاتين) توجد أطلال مدينة (المايا) العظمى المعروفة باسم (تولوم) .. إن ذلك المبنى العتيق الواقف معروف للجميع .. إن اسمه معبد (فريسكو وكاستيللو) .. وهو من الآثار المهمة جدًا فى المكسيك .. يقال إن ملك الذباب موجود هناك .. مدفون هناك .. لكن أين ؟ لا أحد يعرف ..

« إن ملك الذباب شخصية غامضة .. ربما كان ملكًا بالفعل ، وربما كان ساحرًا أو طبيبًا ساحرًا .. لا أحد يعرف بالضبط .. فقط نعرف أنه كان موجودًا منذ قرون عديدة ، وكان يملك قدرة غير عادية على السيطرة على جحافل الذباب .. تحوم حوله .. تمتثل لأمره .. تهاجم من يريد .. وكان غضب ملك الذباب يعنى أن يهاجمك الذباب فلا يترك لك لحظة راحة واحدة .. إنه عقاب جهنمى لو فكرت فى الأمر .. عيناك تلتهبان .. طعامك يفسد .. جلدك يتقرح ..

فلاشىء إلا الموت البطىء ينتظرك بعد شهور أو أعوام ..

« إن ملك الذباب ساحر لكنه ليس خالدًا ، وقد مات .. لا أعرف الطريقة التى استطاع بها القوم أن يدفنوه تحت المعبد .. لكن من عرفوا مكان الدفن لم يظلوا أحياء طويلاً .. يبدو هذا قاسيًا لكن كانت هذه هى الطريقة الوحيدة كى لايعرف أحد مكان القبر ..

« يؤمن القرويون حتى اليوم أن ملك الذباب يجلس هناك تغطيه تلك الأسراب الرهيبة .. ملايين منها .. وأن من يقلق راحته الأبدية ينل غضبه . يطارده الذباب فى كل صوب متى بلغ الأربعين من العمر أو تجاوزها .. ولسن الأربعين سبب مهم هو أن ملك الذباب لقى حتفه فى سن الأربعين ..

« اليوم يزور الناس المعبد ويلتقطون الصور فيه .. لكن القرويين - المسنين منهم خاصة - لايجسرون على ذلك .. ويؤمنون أن الحظ العاثر سيجعل أحدهم يكتشف القبر .. عندها لن يستطيع أحد أن ينقذه .. »

هنا قاطعت الرجل وقد بدا لى كل هذا القدر من المعلومات أكبر من أن أستطيع ابتلاعه دون أسئلة :

- « لحظة .. القصة تبدو مألوفة .. لكن ماذا تقول عنى أنا الذى لم أر المكسيك فى حياتى ؟ »

قال فى نوع من نفاد الصبر :

- « لاتعتقد أننى سأنهى القصة دون أن أخبرك ما علاقتك بها .. »

وغير وضع ساقيه لتصير اليسرى على اليمنى .. كان طرف السروال يرتفع إلى منتصف ساقه فرأيت أنه يلبس حذاء طويل العنق يساعد فى إضفاء طابع الغرابة هذا ..

واصل السرد :

- « لا أستطيع أن أزعم أننى وسيط جيد .. لكن هناك أشياء غريبة تطاردنى منذ زمن .. كان هناك من يأتينى فى حالات السبات ليتحدث معى .. لاأعرف من هو .. لاأعرف حتى كيف يبدو .. فقط

كنت أشعر بوجود غامض مقبض كأنه الكابوس ، وكان يتبادل معى الحديث .. كنت أعرف طيلة الوقت أنه هو ملك الذباب نفسه ..

« عرفت منه الكثير عن الظلام .. عن قرون من الوحدة .. عن الذباب الصديق الذى لم يفارقه لحظة .. عن الصمت .. عن الموت .. عن المدنسين ..

« نعم .. كان هناك مدنسون .. بالتحديد اثنان منهم .. كانا من وطنك وكانا يحاربان مع الإمبراطور الأخير فى حرب لانفع فيها لهما ، لكنهما كانا مسخرين .. »

كانت هذه أول مرة أسمع فيها معلومة كهذه وقد بدت لى سخيفة جدًا ، لأننى لم أقرأ الفصل الخامس طبعًا ، فقلت :

ـ « هنا نتوقف .. لم يحارب مصرى واحد فى المكسيك .. هذا لايتفق مع أبسط القواعد الجغرافية والتاريخية ! »

قال فى عناد كأنما يريد استكمال القصة سريعًا :

ـ « كان هناك فلاحان من وطنك عام 1867 .. أحدهما كتب عليه أن يموت بلا ذرية والآخر كان مصابًا بمرض عضال ، لكنه كان أبًا .. وقد دنسا القبر عن طريق الخطأ لكن لعنة ملك الذباب لم تتركهما .. لقد ماتا جوعًا أو ظمأً أو مختنقين تحت أطنان الذباب .. لكن اللعنة حلت بالذى له ذرية .. واللعنة تحل بالأكبر من أبنائه وأبناء أبنائه كلما بلغوا سن الأربعين .. »

ملت إلى الأمام فى غباء محاولاً فهم معنى هذا كله ، فضحك فى نوع من القسوة وقال :

ـ « هنا نجد نوعًا من الحظ العاثر قابل ملك الذباب أو (الشىء) .. إن الابن الأكبر للرجل يموت فى مصر فى سن الثلاثين .. ثم يموت ابن الابن الأكبر فى السابعة والثلاثين .. وهكذا .. كل الأحفاد كانوا ينجبون مبكرًا ويموتون مبكرًا .. حتى ظهر الاستثناء الوحيد .. رجل فى الأربعين من عمره يعيش فى مصر .. لقد تحركت اللعنة التى انتظرت مائة عام .. وبدأ الهول يحاصر الرجل ..

« هنا تدخل شخص ما بحماقة ، وأدت حماقته إلى تعجيل نهاية الرجل الذى جن وقتل نفسه .. هكذا تحولت اللعنة لتصيب ذلك الأحمق ، الذى منعها من أن تكتمل ..

« الأحمق الذى تدخل فيما لا يعنيه ..

« الأحمق الذى دفع الرجل من فوق حافة الجنون التى كان يتماسك فوقها ..

« الأحمق الذى عرفت أنه الآن فى الولايات .. فى هذا الفندق بالذات .. وأن (كولبى) يعرفه ..

« الأحمق الذى هو أنت يا بروفسور (إسماعيل) .. »

* * *

– « لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف !! لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !! »

* * *

– « كل شىء بدأ بعد عيد ميلاد زوجى الأربعين .. سألنى عن الهدايا التى تلقاها زوجى فى ... »

* * *

سألت (موهون) وأنا أرتجف :

– « تريد القول إن (مختار) كان يدفع ثمن خطأ ارتكبه جد له عام 1867 ؟ وإننى أدفع ثمن محاولتى إنقاذه ؟ »

– « (مختار) ؟ هل كان هذا اسمه ؟ بالضبط .. أنت تفهمنى جيدًا .. »

– « ولو لم أتدخل .. هل كانت اللعنة ستصيب ابن (مختار) لو بلغ سن الأربعين ؟ »

بدل وضع ساقيه وقال فى تؤدة :

– « لا أعرف .. هذا الجزء غامض .. انطباعى هو أن اللعنة تبدأ بالذباب لكنها لن تنتهى به .. لا أدرى حقًا .. ربما كان (مختار) هو نهاية الحلقة لو لم تحطمها أنت .. »

حقاً هذه خسارة كبرى .. إن الوغد الصغير ابن (مختار) يستحق نهاية كهذه ..

ـ « أنا لم أحطمها .. كلامك يوحى بأننى أقنعت الرجل بالانتحار .. »

ـ « ملك الذباب يرى ذلك ، وهذا كاف .. لاتوجد محاكمات استئناف هنا لو كنت تفهم ما أعنيه .. »

هنا سألت أول سؤال أردت أن أوجهه ومنعنى التهذيب :

ـ « وقت ؟ ماذا تستفيد من إخبارى بهذا ؟ »

نظر لى فى حدة وقال :

ـ « أنا مجبر على طاعته .. لا اخفى عليك أننى أخاف هذا الشىء كثيراً .. هو طلب منى أن أقابلك .. وأن أخبرك بالمطلوب منك .. »

ـ « وما هو المطلوب منى ؟ »

ـ « إنه يريد أن يراك ! »

* * *

9ـ يجب أن تذهب ..

ـ « طلب أن يرانى ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « ذلك الشىء الذى يزورك ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وهو فى المكسيك الآن ؟ »

ـ « واضح أنك ذكى حقًا .. »

ـ « قلت إنك لا تعرف مكانه .. »

ـ « لكنه يعرف مكانك .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لايهم أن تعرف أو أعرف .. المهم أنه هو يعرف .. »

ـ « وماذا لو لم أذهب ؟ »

- « لن يلومك أحد .. لكنك ستبقى حاملاً هذه اللعنة حتى النهاية المريرة، وصدقنى لا أعتقد أنها بعيدة إلى هذا الحد ... »

* * *

كانت بعض الذبابات قد احتشدت فى الغرفة لا أدرى من أين جاءت .. لاحظتها ولاحظها (موهون) .. لا أحاول أن أوحى بشىء لكننى أقسم إنه ارتجف نوعًا وبدا أكثر عصبية .. هذا الرجل يحتفظ ببعض آدميته ..

قلت له باسمًا :

- « لا تخف .. هذا ذباب منزلى عادى من طراز (ماسكا دومستيكا) الوديع .. لا هو ذباب مقابر ولا (تسى تسى) ولا أى شىء .. لقد خطر لى هذا كثيرًا، واصطدت ذبابة فحصتها بالعدسة .. »

هز رأسه وغمغم :

- « لا تستطيع أن تكون متأكدًا جدًا .. ولا تستطيع أن تكون حذرًا أكثر مما يجب مهما حاولت .. »

وكنت أفهمه .. لهذا تشعر أن الأرض التى زحف عليها الثعبان صارت ملوثة للأبد .. لهذا اعتقد القدماء عندنا أن البرص (بفتح الباء) ينجم عن مرور البرص (بضمها) على جلدك .. إن الخوف من الزواحف والحشرات هو فوبيا أخرى لا تفسير لها، ولا تخضع للمنطق .. فما بالك إذا كان الذباب شيطانيًا أصلاً ..

سألت الرجل وأنا أفكر فى عمق :

- « أنا لم أذهب إلى المكسيك قط من قبل .. »

- « هذه فرصة جيدة لتجرب . ولا تنس أنها على حدود هذه الولاية .. أى أنك تستطيع السفر بالسيارة إذا أردت .. سأرتب لك كل شىء .. »

- « ولماذا ؟ »

- « لأنه أمرنى بهذا وأنا كما قلت أخشاه كثيرًا .. »

لم يكن السفر تحت رعاية قاتل المافيا هذا مما يطمئن النفس، لكنه على الأقل شخص مألوف .. الآن صار مألوفًا ..

كنت أعرف أننى سأسافر .. السبب هو أن قصته متكاملة منطقية حتى هذه اللحظة .. لاتوجد ثغرات .. هذا يعنى أنه صادق .. وأنا فى ورطة حقيقية لا أعرف كيف أتخلص منها .. الآن قد يقدم لى هذا الرجل الحل أو يقربنى منه فكيف أرفض ؟

ـ « متى أذهب إذن ؟ »

ـ « غدًا صباحًا لو أردت .. »

* * *

فى الصباح كنت أتجه إلى المكسيك .. الأمر الذى بدا لى غريبًا .. وتساءلت : ماذا لو لم أكن فى (تكساس) أصلاً حين اتصل ذلك (الشىء) بـ (موهون) ؟ هل كان سيطالبنى بالسفر من مصر إلى المكسيك خصيصًا ؟ إذن هذا مسخ من الطراز الذى لايحاول تضييع وقتى أو جهدى أو مالى .. لقد وجدها فرصة مناسبة لى كى أقابله (بالمرة) ما دمت هنا .. وتكلفة الرحلة ليست باهظة على كل حال لأن المسافة قصيرة ..

ماذا أقول لكم عن المكسيك ؟

فى الحقيقة لم أرها .. أكون كاذبًا لو قلت هذا ، لأننى اخترت أن أراها فى أعنف فترة من تاريخها الحديث .. وهو شىء معتاد بالنسبة لى على كل حال .. كيف تتصور أن أزور المكسيك فى فترة هدوء أو استقرار ؟

لقد كانت شوارع العاصمة فى ذلك الوقت (لابد أنه كان عام 1969 إذن) تعج بمظاهرات الطلبة ضد الرئيس (دياز أورداز) .. وعلى الأرجح كان هذا جزءًا من ثورة الشباب فى العالم كله .. لأن أوروبا كانت تغلى بدورها فى هذه السنوات الحاسمة بالذات ..

وقد حاول سائق السيارة أن يشرح لى القصة لكنى لم أفهم .. كيف يبالى رجل لايجرؤ على فتح زجاج سيارته خوفًا من الذباب ، بأن يعرف سبب ثورة الطلاب ؟

إن انطباعنا عن المكسيك دومًا هو الثورات والرجال الذين يلبسون قبعات (السومبريرو) ويحتسون (التاكيلا) ويقذفون القنابل طيلة اليوم ..

كان كل مكان متوترًا ، وفى كل ركن رجل أمن مستعد لإطلاق الرصاص دون مناقشة .. وقد أسعدنى الحظ برؤية مظاهرة كانت الشوارع فيها تشتعل نارًا ، ثم ظهرت قوات الشرطة على خيولها وراحت تطلق الرصاص فى كل صوب .. وبصعوبة استطاع سائق السيارة أن يبتعد بنا فى شارع جانبى قبل أن تصيبنا رصاصة ما ..

ولأسباب كهذه كادت الألعاب الأوليمبية التى أقيمت فى (مكسيكو سيتى) عام 1968 أن تلغى ..

طبعًا انتهت هذه الاضطرابات عام 1970 بتولى (لويس إيفاريز) منصب رئيس الجمهورية ..

يجب أن أقول هنا إن هذه الاضطرابات كانت انعكاسًا خارجيًا لحالتى الشخصية .. كنت أشعر بأن العالم ينتهى بالفعل .. قتال فى الخارج وحرب ضروس فى الداخل .. كأنما الطلبة يتظاهرون مطالبين بحل مشكلتى مع ملك الذباب هذا ..

مشكلتى الشخصية كانت تنغص علىّ كل شىء بحيث فقدت أية قدرة لى على الملاحظة أو الاستنتاج ..

وبدا لى أنه لو تبخرت المكسيك كلها فالأمر لا يعنينى كثيرًا ..

على كل حال كان انطباعى الأساسى عن البلد أنه كئيب خانق .. ويمكن بسهولة فهم محاولات المكسيكيين الفرار عبر الحدود إلى الحلم الملون باهر الألوان الواقع على حدودهم ، والمسمى بالولايات المتحدة .. كأن الحدود هى سد يمنع فيضان الثروة من أن يسيل ليغمر الجانب الجنوبى من الحدود .. أو يمنع فيضان الفقر من أن يغرق الجانب الشمالى منها ..

إن الثقافة الإسبانية موجودة فى كل مكان ، والسبب أن الإسبانى السفاح (كورتيز) هو أول من غزا هذا البلد عام 1519 تاركًا وراءه طريقًا طويلاً من الطرق التى تتركها الحضارة .. طريقًا من الأطراف المبتورة والرءوس المقطوعة والبطون المبقورة والعيون المثلومة .. هذا هو ثمن التحضر الباهظ لكن المستعمر الغربى كان يتولى مهمته فى صبر وتواضع ، وحقًا لم يقتصد الأخ (كورتيز) فى الرءوس التى قطعها من أجل التحضر ..

أما عن رحلتى إلى شبه جزيرة (يوكاتين) فحدث ولا حرج ..

إن البلد شديد الوعورة .. عبارة عن منحدر بين سلسلتين من الجبال : (سييرا مادرى أوكسيدنتال) وتحدّها غربًا و (سييرا مادرى أورينتال) وتحدّها شرقًا .. إن من عشقوا أفلام رعاة البقر القديمة مثلى يجنون فى اسم (سييرا مادرى) إثارة خاصة .. المهم أن السلسلتين تلتقيان فى سلسلة جبال بركانية اسمها (سييرا مادرى دل سور) ..

تقع شبه جزيرة (يوكاتين) فى الطرف الجنوبى الشرقى من البلاد وهى منخفضة .. وهذا يرحم رئتى قليلاً لحسن الحظ ..

يجب أن أذكر هنا أنها هى أول جزء تم اكتشافه من (المكسيك) عام 1517 على يد (فرانسسكو فرناندز دى كرودويا) ..

أخيرًا وصلنا إلى (يوكاتين) ..

وكانت أطلال (تولوم) تنتظرنا ...

* * *

10 ـ تولوم ..

لم أكن أعرف حرفًا من الإسبانية ..

لهذا كان معى مرشد مكسيكى يجمع بين الإنجليزية والإسبانية .. إنه يشبه (كانتنفلاس) الممثل المكسيكى الكوميدى فائق الشهرة ، وإن كنت أستبعد أن تكونوا رأيتموه فى أى فيلم من قبل .

اسمه (إميليو) .. هذا كاف على ما أظن .. يبدو لى أن كل المكسيكيين اسمهم (إيميليو) .. فتى نحيل أسمر يلبس صندلاً ويضع على كتفه تلك العباءة التى يسمونها (بانشو) ، وله وجنتان بارزتان تميزان جنس الهنود هنا .. كلا .. لا يلبس قبعة وإلا بدا الأمر مبالغًا فيه !

المشكلة هنا هى أننى غير قادر على طلب العون من أحد .. لا أحد على الإطلاق .. أولاً لن يصدقنى أحد ، ولن يسمحوا لى بالعبث فى آثارهم ..

أقول إننا وصلنا إلى أطلال (تولوم) الرهيبة قرب الغروب .. وليس هذا الموعد نكاية فى النفس كما تفعل أفلام رعب (هامر) حين لا يحلو قتل مصاص الدماء إلا فى هذه الساعة بحيث يصير استيقاظه حتميًا .. الفكرة فى هذا الموعد أن حركة السياحة تقل جدًا .. ويخلو الوادى المخيف حول المعبد ، من ثم لن يوجه أحد لى أسئلة فضولية ..

الذباب يحتشد حولى بشكل مريب ، برغم أطنان الدهان طارد الحشرات التى دهنت بها نفسى .. والفتى كان مندهشًا .. هذه المرة بعدما غادرنا السيارة المغلقة كان مندهشًا ..

المعبد ينتظر .. وأنا أتجه إليه فى صمت حاملاً حقيبتى ..

المعبد ينتظر وضوء الغروب الأرجوانى يلون كل شىء ..

المعبد ينتظر وكذلك الفتى المكسيكى الذى جاء معى ، ببساطة لأنه خائف ..

ببساطة لأننى لا أريد شهودًا ..

فقط قال كلمة واحدة :

ـ « رى دى موسكاس ! »

لم أطلب أى نوع من الترجمة .. هززت رأسى موافقًا وأشرت له كى يقف حيث هو ، واتجهت إلى المعبد .. لم تكن خطواتى شجاعة كخطوات الأبطال ، لكنها كذلك لم تكن خطوات دجاجة مريضة .. إن مشكلتى يجب أن تنتهى الآن أو أموت ..

لقد قلت له قبل أن أنصرف :

ـ « على الأرجح سأعود بعد نصف ساعة .. لكن لو لم أعد انتظر نحو ساعة أخرى ثم انصرف .. انس أنك قابلتنى .. »

كانت هذه الكلمات الغامضة مما زاده رعبًا وتطيرًا .. ولا أخفى عليك حقيقة أنى كنت مستمتعًا بكل هذا الغموض إلى حد ما .. ما زال من الممكن أن تجد طفلاً سخيفًا داخل كهل يوحى بالوقار ..

المعبد ينتظر .. وأنا أتجه إليه فى صمت حاملاً حقيبتى ..

المعبد ينتظر وضوء الغروب الأرجوانى قد صار أزرق ..

المعبد ينتظر وكذلك أنفاسى ..

* * *

الآن أدخل المعبد القديم ..

لم يكن مكاناً مهجوراً أو منسياً .. لابد أنه كان يعج بالسياح منذ ساعتين لا أكثر .. لكنه الآن خال تماماً ، ومن الواضح أن المكسيكيين لايعينون خفراء لحراسة هذه الأماكن ليلاً ..

الحقيبة تتدلى على ظهرى ، فأخرج منها شيئين : قرص النيتروجلسرين تحسباً لما لاتحمد عقباه ، وكشافاً أهتدى به فى هذا الظلام الذى صار دامساً ..

أمشى فى طرقات المعبد بين الجدران .. شاعراً

بخيبة أمل .. هذه المعابد لاتمثل ربع قيمة أو جمال معبد (الكرنك) عندنا مثلاً .. ربما كانت المايا حضارة عظمى ، لكنهم بالتأكيد لم يكونوا بارعين فى هذه الأمور .. هذا المكان لاقيمة له إلا القدم ..

ترى متى يناديني الأخ (موسكاس) لو كانت قصة (موهون) صحيحة ؟

لم يحدث شىء .. ومن الجلى أننى لو جبت المعبد كله فلن أجد شيئاً ..

هكذا رحت أجول كالمجنون .. وقررت أنه لو طال الأمر أكثر من نصف ساعة فلسوف أعود إلى الأخ (إميليو) وأنسى القصة كلها ..

لكن أذنى تلاحظ تغيراً فى طنين الذباب الذى يحوم حولى ..

يتعالى .. يتعالى ..

ثم يهدأ .. يهدأ ..

يتعالى .. يهدأ .. يتعالى ..

هنا بدأت فى رعب أفهم ..

إنه يمارس معى تلك اللعبة القديمة حين كنا نخبئ شيئًا ما من أحد أصدقائنا ، ويدخل هو المكان باحثًا عنه معتمدًا على أزيزنا .. كلما تعالى الأزيز كان معنى هذا أنه أقرب إلى الشيء .. وكلما انخفض كان معنى هذا أنه يبتعد ..

رحت أتحرك فى حذر معتمدًا على عداد (جايجر) المصنوع من الذباب هذا ..

هنا .. هنا أعلى نقطة للصوت ..

إن المكان يقع إلى جوار عمود حجرى متآكل ..

جثوت على ركبتى وتفحصت الأرض .. كانت عليها طبقة كثيفة من الأتربة والصخور ، لكنى بين هذه الصخور تمكنت من رؤية المقبض ..

يا إله العالمين ! هذا صحيح إذن !

رفعت المقبض بصعوبة ، لأنه من الواضح أنه لم يفتح منذ دهور ..

أسلط الكشاف فأرى درجات سلم قديمة .. لا أشك فى أن (كارتر) وجد درجات مشابهة فى قبر (توت

عنخ آمون) وإن كانت بالتأكيد أفضل حالاً .. لم يكن عددها كثيرًا لأن القاع كان على بعد ثلاثة أمتار ..

ولما كنت أعرف طالعى جيدًا ، فأنا أعرف أن هذا الباب ينتظرنى كى ينغلق .. هذا ما يحدث معى دومًا .

لهذا بحثت فى حقيبتى حتى وجدت الحبل الغليظ ، فأخرجته ولاهثًا ربطت طرفه إلى المقبض ، والطرف الآخر شددته جيدًا ولففته حول العمود الحجرى .. لا بأس .. هكذا لن تكون هناك مفاجآت ..

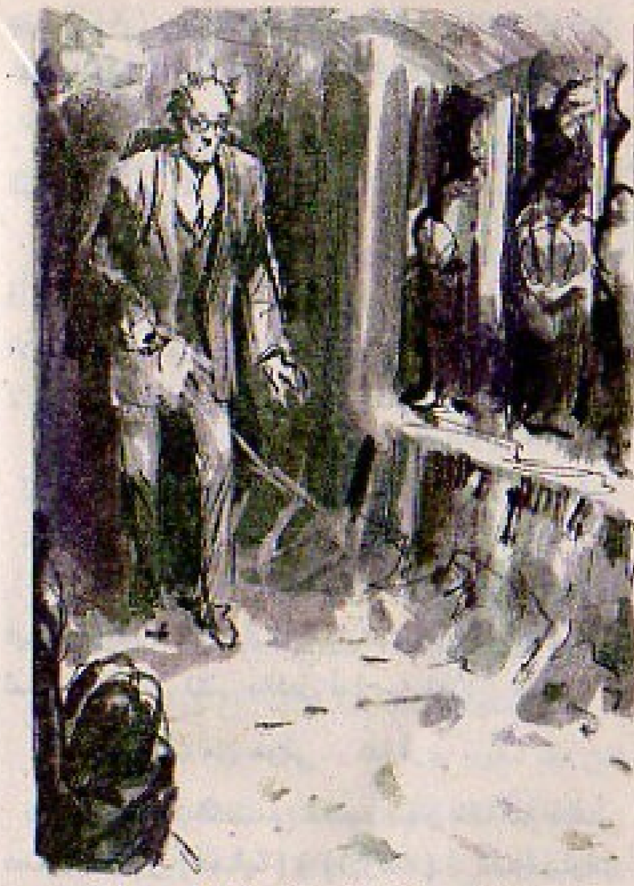
فلنهبط ..

* * *

مقبرة (مايا) .. وكهل أحمق أصلع الرأس ينزل فيها وحيدًا .. لو رأيت هذا الكابوس فى منامى لسخرت منه .. لكنى بالفعل أمارسه الآن ..

أسلط الكشاف من حولى .. هنا أرى ..

أرى المشهد الكلاسى القديم الذى كنا نراه فى صور مقابر (المايا) و (الإزتك) .. المومياوات



مقبرة (مايا) .. وكهل أحمق أصلع الرأس ينزل فيها وحيدًا ..

الجالسة فى صفوف وقد ضمت أرجلها وأذرعها إلى الرأس .. كأنما رجل يجلس القرفصاء ويسد أذنيه كى لا يسمع .. عشرات منها .. بل مئات .. كأنما تحرس جنبى الممر ..

لشد ما تعطى الظلال انطباعًا بالحركة !!

صوبت الكشاف إلى الأرض فرأيت آثار أقدام .. أما الأهم فكان هيكلين عظميين مفتتين .. تناثرت عظامهما فى إهمال كأنما سقطا من وضع واقف .. وثمة بندقية عتيقة مغطاة بالغبار إلى جوار أحدهما .

لا أحتاج إلى دليل سياحى كى أعرف عظام من هذه ..

« نعم .. كان هناك مدنسون .. بالتحديد اثنان منهم .. كانا من وطنك وكانا يحاربان مع الإمبراطور الأخير فى حرب لا نفع فيها لهما ، لكنهما كانا مسخرين .. »

هذا هو ما قاله (موهون) ، ومن الواضح أنه بارع حقًا .. أو دقيق جدًا فى نقل ما يسمعه ..

كنت قد اتخذت قرارى .. أنا لا أحب هذا المكان .. وأعترف أننى أخشى هذه المومياوات كثيرًا .. أنت

توافقنى على ذلك .. هذه المغامرات لم تخلق ليخوضها واحد ولكن ليخوضها فريق .. أعرف أن هذا غير منطقى وغير علمى ، وأن المومياوات لاخطر منها ، لكن ماذنبى إذا كان قلبى وساقى لايستجيبان للمنطق ؟ سأرجع الآن بلا مناقشة ..

« اقترب أيها الغريب »

من قال هذا ؟؟ لا أحد .. وحتى لو قالها أحد فلن يقولها بالعربية ..

« اقترب .. اقترب .. »

إنها فكرة تتردد فى ذهنى .. فكرة مجردة .. لكنها مدوية كأنما هى صرخة فى بهو فارغ ..

وأنا لاأحبّ استعمال كلمة (غريب) هذه لأنها بالفعل توحى بالغربة .. توحى بالتعالى الثلجى .. يمكن لهذا الشىء أن يناديني باسمى وهو بالتأكيد يعرفه .. لكنه غير راغب فى هذا القدر من الألفة طبعًا ...

وجدت نفسى أمشى كالمخدر إلى تلك القاعة ..

القاعة التى يأتى منها النور الخافت ..

كراش !

هذه عظمة تهشمت تحت حذائى قطعًا .. لابد أنه ضلع .. ضلع فلاح مصرى كان من مائة عام يقف وقفتى هنا ، ويفكر ذات أفكارى ..

هذه المشاعل ..

عشرات منها على الجدران .. وقاعة صغيرة فى حجم صالة دارك لو كانت دارك متسعة ..

من يشعلها ؟ من يعنى بها ؟

لكنك لاتجد وقتًا للتفكير لأنك تصاب بالهلع من كل أسراب الذباب هذه .. أسراب من كل شكل ولون تحوم حولك وتحاصرك .. لكنك تدرك أنها جميعًا تأتى وتتجه إلى جسم لايمكن أن تفهم ما هو يجلس فى ركن المكان .. يبدو أن هذا مقعد مرتفع أو منصة .. مستحيل أن تعرف لأنه مغطى بطبقة سميكة من الذباب . وتذكرت ماقرأته يومًا عن أنه إذا كتب لذكر وأنثى من الذباب الإنجاب بحرية ، ولم يقض على ذريتهما ، فإنه بعد عامين يكونان قد غطيا الكرة

الأرضية كلها بطبقة سمكها سنتيمتر من الذباب .. هذا الذباب واضح أنه ينعم بوقته حقًا ..

مهما كان ذلك الشىء الذى يغطيه الذباب فهو ميت ..

لايتحرك ..

* * *

مددت يدى إلى الحقيبة ..

أخرجت زجاجة الكيروسين ، وعلى بعد متر رحت أنثر السائل قوى الرائحة على هذا الشىء فى الركن ، والذى لا أعرف ما هو .. أنثر .. أنثر عليه وعلى الذباب ..

فرغت الزجاجة فأخرجت أخرى ، ورحت أنثر السائل على الأرض وفى كل مكان ..

لو سمعت فى هذه اللحظة صوتًا يقول لى : لاتفعل أيها الغريب .. لمت ذعرًا ..

لكن هذا لم يحدث .. أحمد الله على أنه لم يحدث .

كنت قد وصلت إلى باب القاعة فوقفت هناك .. أخذت نفسًا عميقًا ثم تناولت أحد المشاعل المعلقة على الجدار ، وألقيت به على السائل ..

راحت شعلة زرقاء صغيرة تزحف فوق السطح البراق .. الذى بدأ يغلى ..

وبعد دقائق كانت الشعلة قد تحولت إلى نيران تغطى على كل شىء ..

ابتعدت أكثر بينما الذباب المحترق يتطاير نحوى مغضبًا .. وذلك الشىء فى الركن يتحول إلى جذوة وينهار ببطء ..

كانت النيران تلقى ضوءها الخافت على طابور المومياوات المتراصة بالخارج ، وخطر لى أنها لو كانت مخصصة للحراسة فقد حان الوقت كى تنهض .. ترى هل أتخيل أم أنها تتحرك فعلاً ؟

لكن هذا لم يحدث لحسن الحظ ..

يا أحمق .. كف خيالك المريض لحظة .. الموتى لاينهضون ...

اتجهت إلى أسفل الدرج ونظرت لأعلى .. كان المدخل مفتوحًا كما هو ..

صعدت فى الدرجات المعدودة ..

وفى النهاية وجدت نفسى فى المعبد ، وإن كانت أضواء النيران القادمة من أسفل تدل على أن اللهب بلغ ذروة مجده .. لا أعتقد أنه سيغادر القاعة على كل حال ليمسك بالمومياوات .. لا أريد أن أحرق جثة أبدًا حتى لو كانت من (المايا) وإن كنت استثنيت ملك الذباب ذاته لأسباب لا تخفى على أحد ..

أغلقت الفتحة ودست عليها جيدًا .. وشعرت كأنما أولد من جديد ..

ونظرت لساعتى ...

لقد قضيت بالداخل خمسًا وعشرين دقيقة .. هذا معناه أن الفتى ينتظرنى بالخارج ..

ولكن هل تخلى الذباب عنى؟

* * *

الخـــاتمة ..

كان يقف هنالك فى ضوء القمر ..

ولما كان القمر وراءه فقد كان جسده محددًا باللون الأسود بدقة على صفحة السماء بطريقة (السلويت) .. فقط ترى حدوده الخارجية ..

كلا .. ما كان هذا هو الفتى مرافقى ..

* * *

كان طويل القامة قوى البنيان .. وأدركت أن الأشياء البارزة من رأسه هى على الأرجح قبعة من ريش يضعها هناك ..

كان يرفع ذراعيه لأعلى كأنما يستمطر السماء ..

ومن الوهلة الأولى أدركت أنه من الأفضل ألا أقترب .. ربما كان من الأفضل أن أرقد على بطنى ..

أنت تعرف الأشياء غير المريحة حين تراها ..

لكن هل كان يرانى؟

كان يضحك بصوت عال .. صوت مدو رهيب .. يتجاوب مع الصدى فى الوادى .. ومن عدة أماكن دوت ضحكات الضباع ..

ثم رأيت أن أشياء عديدة تحتشد من حوله .. أشياء مشتعلة صغيرة كأنها فراشات اللهب .. إنها تتجمع عليه .. تقف على كل موضع من جسده ..

إنه الذباب ..

يفر من المقبرة ليلتف من حوله .. يرقص رقصته المجنونة ..

الرجل يضحك .. والضباع تضحك ..

ومن المعبد بدأ الدخان يتصاعد ليجعل المشهد ضبابيًا ..

ثم - فى تؤدة - ابتعد الرجل نحو الأفق .. وقد صار الذباب يحيط به كأنما هو سحابة كثيفة تحيط بجبل ..

والمخيف هنا أن أكثر الذباب كان يحترق ويتهاوى لكنه مصمم على أن يطير فى رحلته الأخيرة هذه ..

والرجل يبتعد ..

* * *

- « هل حرقت البقايا يا سيدى ؟ »

جعلنى سماع هذه الكلمات أثب مترًا فى الهواء ، وشعرت بضربات قلبى تختلط ببعضها .. ضربات زائدة .. تسارع فوق بطينى .. إيقاع جيبى .. إيقاع عقدى .. كل اضطرابات ضربات القلب الموجودة فى الكتب شعرت بها فى هذه اللحظة ..

ونظرت للوراء لأجد أن الفتى (إيميليو) على بعد متر منى يتوارى وراء صخرة .. وكان الرعب فى عينيه ربما أكثر منى ..

قلت له :

- « نعم يا (إميليو) .. أنا حرقت بقايا (ملك الذباب) .. »

- « كان هذا خطأ يا سيدى .. »

وابتلع ريقه وهمس بإنجليزيته العجيبة :

- « هناك رجل له لحية قصيرة ويرتدى بذلة سوداء .. وقف هنا طويلاً بانتظارك على ما يبدو .. وكان علىَّ أن أتوارى فى أى مكان .. فجأة اهتزت الأرض نوعًا ثم بدأ دخان قليل يتصاعد من المعبد .. هنا رأيت الرجل يتغير .. أقسم بكل القديسين إنه كان يتغير .. »

ورسم على صدره الصليب ، وأردف :

- « استطالت قامته وانتفشت عضلاته .. ثم راح ينزع ثيابه .. وخيل إلىّ أنه وضع قبعة من الريش على رأسه .. كان يضع حول صدره وفى معصميه عشرات الحلى .. ثم رأيت الذباب يأتى من كل صوب ليحتشد حوله .. لقد صار (رى دى موسكاس) ..

- « هنا ظهرت أنت .. لكنى لم أستطع إنذارك .. »

قلت له همسًا :

- « وكيف عرفت أننى حرقت البقايا ؟ »

- « يقول أجدادى إن هذا يجعل ملك الذباب يتحرر ليعيش فى جسد واحد من الأرضيين . ومن حظنا الذى كان حسنًا أن أحدًا لم يجد القبر قط .. من يجد القبر تهاجمه اللعنة وأسراب الذباب فلا يجد تحررًا إلا بالموت أو بحرق البقايا .. وهذا يحرر ملك الذباب من جديد .. »

نظرت له فى غباء .. ثم همست :

- « هل يمكننا أن نعود الآن أم أن المنطقة خطرة ؟ »

- « أعتقد أن بوسعنا الفرار بشكل ما لو كنا سعيدى الحظ .. »

وقد كنا ...

* * *

فى أثناء عودتى إلى (تكساس) كنت غارقًا فى الأفكار السوداء ..

طبعًا لا خلاف على أن الرجل الذى (له لحية قصيرة ويرتدى بذلة سوداء) هو (موهون) ذاته .. وهكذا يكون قد تحول إلى ملك الذباب هو نفسه .. فلماذا جاءنى وحكى لى تلك القصة ؟ لأنه كان مكلفًا بأن يتحول إلى الملك الجديد .. وهذا معناه أن الأمر كله كان مقصودًا كى أجد نفسى أمام الجثة .. عندها هل أحرقها بكامل إرادتى ؟ كان الرهان أننى سأفعل .. وقد فعلت ..

يمكن أن نتصور أن اللعنة كما يلى : اللعنة تحل

بمن يدنس المقبرة .. ثم أولاده وأحفاده إلى أن يأتى أحدهم إلى المقبرة ويحرق الرفات ويفعل ما عجز عنه الآخرون .. هنا ظهر أحمق يدعى (رفعت إسماعيل) قادم إلى الولايات المتحدة قريبًا .. وهذا الشخص يصلح لينتقل الذباب إليه . الطريقة الوحيدة للخلاص هى أن يزور المعبد .. وأن يحرق البقايا باختياره الخاص ودون توصية من أحد ..

هذا هو الخطأ الأعظم الذى يحرر الكابوس من محبسه ..

والآن لا أريد أن أفكر فى أطلال (تولوم) التى يجول فيها ملك ذباب جديد منتعش .. أهديته أنا للبشرية دون قصد طبعًا ..

ترى هل يجدونه ؟ هل يقتلونه ؟

لا أعرف ولا أريد أن أعرف ..

ما يهمنى فى القصة كلها هو أننى تحررت من الذباب الذى كان يطاردنى ، وأننى متعب وبحاجة

ماسة إلى العودة إلى دارى .. دارى البعيدة عن كل هذا ، وإن كنت ما زلت قلقًا بصدد أجدا[illegible] .. من كانوا وماذا فعلوا فى حياتهم بالضبط ؟ لو [illegible]ف (مختار) أنه دفع ثمن خطإ جد جده الذى مات فى معبد بالمكسيك لاتهمنى بالجنون ..

ترى أية أخطاء على كل منا أن يدفع ثمنها يومًا ما ؟

* * *

كانت هناك رحلة إلى أوروبا قبل أن أعود إلى مصر ..

وكانت المقبرة تنتظرنى .. هناك مقابر ومقابر .. لكن ما سأحكى لكم عنه أنا (رفعت إسماعيل) هو مقبرة .. وعندما أقول مقبرة فأنا ..

ولكن هذه قصة أخرى ...

رفعت إسماعيل

القاهرة